كلية اللغة العربية بأسيوط

المجلة العلمية

- - - - - -

من أحوال الصحابة النفسية عند وفاة خير البرية

دراسة بلاغية في كتب السنة

(أبو بكر وعمر وفاطمة نموذجاً)

إعداد

الدكتور/ على عبد الرحيم محمود عبد الهادي

مدرس بقسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بجرجا – جامعة الأزهر.

(العدد الأربعون)

(الإصدار الأول ـ الجزء الرابع)

(١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م)

من أحوال الصحابة النفسية عند وفاة خير البرية

دراسة بلاغية في كتب السنة

(أبو بكر وعمر وفاطمة نموذجاً)

على عبد الرحيم محمود عبد الهادي

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر، جرجا، مصر

البريد الإلكتروني : AliAbdElHadi.el.8.7@azhar.edu.eg

الملخص:

كان أهل الجاهلية في شبه الجزيرة العربية يعيشون في غياهب الضلالات إلى أن جاء الإسلام فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وأحيا فيهم أفئدة قد أماتتها القبلية، وقضت عليها الوثنية، فوجدت في الإسلام نبراساً أضاء لها الطريق، ومهد لها السبيل، لتحي حياة أبدية، في جنة عالية، بالتمسك بقيم إسلامية، وقواعد عقدية، دعاهم إليها خير البرية، وغرسها في قلوبهم الخالية، فأحبوه – صلى الله عليه وسلم – أكثر من أنفسهم، وأولادهم، وافتدوه بأرواحهم وأجسادهم، ومن ثم كان وقع وفاته عليهم ناراً محرقة، ألهبت مشاعرهم، وأججت عواطفهم، وفاضت على مواقفهم، فتباينت قوة وثباتاً، ضعفاً وانهياراً، ومن ثم جاءت هذه الدراسة(من أحوال الصحابة النفسية عند وفاة خير البرية – دراسة بلاغية في السنة النبوية – أبو بكر وعمر وفاطمة نموذجًا)؛ لتكشف عن أحوالهم من خلال ثنايا الكلمات التي حكت مواقفهم، معتمدة على المنهج التحليلي الوصفي الذى استنطق النصوص ليرسم الصورة التي كان عليها هؤلاء الصحابة – رضوان الله عليهم – وهم يستقبلون خبر موت خير البرية –

صلى الله عليه وسلم – ، مبينةً كيف أغنت هذه الكلمات الوصفية عن الصورة التخيلية في إبراز الحالة النفسية، وقد تمخض عن هذه الدراسة إبراز اعتماد المقامات التي وصفت ذلك على الأساليب الحقيقة؛ لكونها أقدر على وصف الحدث، ورصد أحواله، وتحديد ملابساته.

الكلمات المفتاحية: **أحوال، الصحابة، النفسية ، خير البرية، السنة، أبوبكر ، عمر ، فاطمة.**

From the psychological conditions of companions upon death the one of the best creatures.

Rhetorical study in the books of the sunnah

(Abu Bakr, Omar and Fatima as an example)

Ali Abdul Rahim Mahmoud Abd El Hadi

Department: Literature and criticism College : Arabic Language in Girga

Al Azhar University ,Egypt

Email: AliAbdElHadi.el.8.7@azhar.edu.eg

Abstract:

The people of Jahiliyya in the Arabian Peninsula used to live in the wilderness of delusions until Islam came and brought them out of darkness into light, and revived in them their hearts that had been killed by tribalism and eradicated by paganism, to find in Islam a light that illuminated the path for her, and cleared the way for her to live eternal life, in a high paradise, by adhering to Islamic values and doctrinal rules, he called them the one of the best creatures., and planted it in their empty hearts, so they loved him - may God bless him and grant him peace - more than themselves and their children, and ransomed him with their souls and bodies, and so his death fell upon them with a burning fire, inflamed their feelings, and inflamed their emotions and it overflowed with their positions, between varied strength and steadfastness, weakness and collapse, and then this study came (From the psychological conditions of companions

upon death the one of the best creatures. - Rhetorical study in the books of the sunnah - Abu Bakr, Omar and Fatimah as an example); to reveal their conditions through the folds of the words that narrated their positions, relying on The descriptive analytical method that interrogated the texts to draw the picture that these Companions were - may God be pleased with them - as they received the news of the death of the one of the best creatures - may God bless him and grant him peace - showing how these descriptive words enriched instead of the imaginary picture in highlighting the psychological state, and this study resulted in demonstrate the reliance of the denominators to describe on real methods; because it is better able to describe the event, monitor its conditions, and determine its circumstances.

Keywords: The conditions - The companions - The psychological - The one of the best creatures - Sunman - Abu Bakr - Omar - Fatima.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدًا يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة ملكوته، وفيض عطاياه، والصلاة والسلام على المبعوث بأسمى الآيات، وأفصح اللغات، وأبلغ الكلمات سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد

فقد كان أهل الجاهلية في شبه الجزيرة العربية يعيشون في غياهب الضلالات إلى أن جاء الإسلام فأخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهداية، ومن الغى إلى الرشاد، وأحيا فيهم أفئدة قد أماتتها القبلية، وقضت عليها الوثنية، فوجدت في الإسلام نبراساً أضاء لها الطريق، ومهد لها السبيل، لتحي حياة أبدية، في جنة عالية، بالتمسك بقيم إسلامية، وقواعد عقدية، دعاهم إليها خير البرية، وغرسها في قلوبهم الخالية، فأينعت ثماراً دانية، وظلالاً وافية، غذى نبعها النور الرباني، والفيض النبوي الذى أمدهم بالحياة، ورسم لهم طريق النجاة، فأحبوه –صلى الله عليه وسلم – أكثر من أنفسهم، وأولادهم، وافتدوه بأرواحهم وأجسادهم، ومن ثم كان وقع وفاته عليهم ناراً محرقة، ألهبت مشاعرهم، وأججت عواطفهم، وفاضت على مواقفهم، وتصرفاتهم فتباينت قوة وثباتاً، وضعفاً وانهياراً، ومن ثم جاءت هذه الدراسة(من أحوال الصحابة النفسية عند وفاة خير البرية – دراسة بلاغية – أبو بكر وعمر وفاطمة نموذجًا) ؛لتكشف عن أحوالهم من خلال ثنايا الكلمات التي حكت مواقفهم.

وقد دعتني إلى اختيار هذا الموضوع عدة أسباب كان من أهمها :

أولا: – امتلاء العبارات التي صورت أحوال الصحابة – رضوان الله عليهم – إزاء هذا الحدث العظيم

ثانيا: – رغبة الوقوف على دقائق التعبير التي أسهمت في رصد أحوال الصحابة النفسية إزاء هذا الحدث العظيم رغم ابتعادها عن التصوير الاصطلاحي.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي الذى استنطق النصوص ليرسم الصورة التي كان عليها الصحابة – رضوان الله عليهم – وهم يستقبلون خبر موت خير البرية –صلى الله عليه وسلم – ، مبيناً كيف أغنت هذه الكلمات الوصفية عن الصورة التخيلية في إبراز الحالة النفسية.

ونظرًا لكثرة المواقف التي تحكى، وتصور أحوال الصحابة – رضوان الله عليهم – عند وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – اكتفيت بذكر وتصوير أحوال سيدنا أبى بكر، وعمر، وفاطمة ومن ارتبط بهم ممن ورد ذكره في الروايات المصورة لأحوالهم – رضوان الله عليهم – وذلك لورود أطراف من الأحاديث المصورة لأحوالهم في الصحيحين.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تأتى في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة وفهارس فنية.

أما المقدمة: فقد اشتملت على أسباب اختيار الموضوع، والمنهج الذى سرت عليه في الدراسة، وخطة البحث.

وأما التمهيد فقد اشتمل على مطلبين عَرَضْت في المطلب الأول تفسير المصطلحات التي اشتمل عليها عنوان البحث، وذكرت في المطلب الآخر نبذة عن سيدنا أبى بكر وعمر والسيدة فاطمة – رضوان الله عليهم –

المبحث الأول: الحالة النفسية لسيدنا أبى بكر الصديق عند وفاة خير البرية (صلى الله عليه وسلم).

المبحث الثاني :الحالة النفسية لسيدنا عمر بن الخطاب عند وفاة خير البرية (صلى الله عليه وسلم).

المبحث الثالث: الحالة النفسية للسيدة فاطمة الزهراء عند وفاة خير البرية (صلى الله عليه وسلم)

الخاتمة: وذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت لها الدراسة.

الفهارس الفنية: واشتملت على

- **فهرس المصادر والمراجع**
- **فهرس الموضوعات**

وبعد

فهذا بحثى فإن أك قد اهتديت فيه إلى الصواب فما أسعدني به مظهراً من مظاهر توفيق الله، وفيضاً من كرمه ورضاه، وإن كانت الأخرى فحسبي أن جاء من حيث قصدت الإحسان.

{ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }[1]

(١) سورة هود من الآية(٨٨)

التمهيد

المطلب الأول

مصطلحات ومفاهيم

تقصد الدراسة من خلال هذا المطلب إلى بيان الدلالات التي اشتمل عليها عنوان هذا البحث والتي تعمد إلى تحديد معنى :

الأحوال – فهي جمع مفرده حال أو حالة بالتذكير والتأنيث يقول ابن منظور: "والحالُ كِينَةُ الإنسان وهو ما كان عليه من خير أَو شر يُذَكَّر ويُؤَنَّث والجمع أَحوال وأَحْوِلة .... يقال حالُ فلان حسَنة وحسَنٌ والواحدة حالةٌ يقال هو بحالة سوءٍ فمن ذَكَّر الحال جمعه أَحوالاً ومن أَنَّثَها جَمعَه حالات".(١)

وهى في أصل دلالتها تدل على التغير والتبدل يقول ابن فارس" الحاء والواو واللام أصلٌ واحد، وهو تحرُّكٌ في دَوْرٍ. فالحَوْل العام، وذلك أنه يَحُول، أي يدور. ويقال حالتِ الدّارُ وأحالَتْ وأحْوَلتْ: أتى عليها الحول. وأحْوَلْتُ أنا بالمكان وأحَلْتُ، أي أقمتُ به حَوْلاً. يقال حال الرجل في متنِ فرسه يَحُول حَوْلاً وحُؤُولاً، إذا وثَبَ عليه، وأحال أيضاً. وحال الشخصُ يَحُول، إذا تحرَّك، وكذلك كلُّ متحوِّلٍ عن حالة. ومنه قولهم استَحَلْتُ الشخصَ، أي نظرتُ هَلْ يتحرَّك. والحِيلَة والحَويلُ

(١) لسان العرب – للإمام العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصرى ١١/١٩٠ (حول) دار صادر – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م

والمُحاوَلَة مِنْ طَرِيقٍ واحد، وهو القياسُ الذي ذكرناه؛ لأنه يدور حوالَيِ الشيء ليُدْرِكَه".(١)

وهى في الاصطلاح :" معنى يرد على القلب من غير تصنع، ولا اجتلاب، ولا اكتساب، من طرب، أو حزن، أو قبض، أو بسط، أو هيبة، ويزول بظهور صفات النفس، سواء يعقبه المثل أولاً، فإذا دام وصار ملكاً، يسمى: مقاماً، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود".(٢)

ولما كانت هذه الأحوال تتعلق بأشرف الخلق بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ألا وهم صحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم كان لزاما على الدراسة أن تقف على مفهوم(الصحابة) اللغوي، والاصطلاحي.

ف (الصحابة) في اللغة مشتقة من مادة (صحب) وتدل على المعاشرة والملازمة يقول ابن فارس :" الصاد والحاء والباء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مقارَنة شيءٍ ومقاربته. من ذلك الصَّاحب والجمع الصَّحْب"(٣) وفى اللسان :" صَحِبَه يَصْحَبُه صُحْبة بالضم وصَحابة بالفتح وصاحبه عاشره والصَّحْب جمع الصاحب مثل راكب وركب والأَصْحاب جماعة الصَّحْب مثل فَرْخ وأَفْراخ والصاحب المُعاشر".(٤)

(١) معجم مقاييس اللغة – تأليف : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا – تحقيق : عبد السلام محمد هارون ١٢١/٢ (حول) دار الفكر – ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م

(٢) معجم التعريفات – للعلامة على بن محمد السيد الشريف الجرجاني – ت/ محمد صديق المنشاوي– ص٧٢،٧٣ – ط : دار الفضيلة – القاهرة – ٢٠٠٤م.

(٣) معجم مقاييس اللغة ٣٣٥/٣ (صحب)

(٤) لسان العرب ٥١٩/١ (صحب)

أما فى الاصطلاح: فإن التعريفات التي وضعها العلماء للصحابة (اصطلاحاً) كثيرة، ولكن التعريف الصحيح المعتمد هو ما قرره الحافظ ابن حجر بقوله: "وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي هو من لقى النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به، ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقيه، من طالت مجالسته له، أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية، ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى".[١]

أما عن مصطلح النفسية فهو نسبة إلى النفس، والنفس من الألفاظ المشتركة التي لا يفهم معناها بمعزل عن السياق الذى ورت فيه إذ تأتى في اللغة على ذات الإنسان، ولها معان عدة، كلها وردت في المعاجم، فالنفس تطلق ويراد بها :الروح، والجسد، والدم، وسمى الدم نفسا لأن النفس تخرج بخروجه، والعقل، والعين، والنية، والقصد، ولا تعارض بين المعاني المتقدمة، حيث يجمعها شيء واحد: (كل ماله صلة بذات الإنسان)، فالنفس (يعبر بها عن الإنسان جميعه) [٢]

(١) الإصابة في تمييز الصحابة للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني ت /الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ،والشيخ على محمد معوض ١/ ١٨٥ – ط: دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان – الطبعة الأولى – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

(٢) ينظر :الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تأليف :أبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ٣/٩٨٤ وما بعدها (نفس) – ط: دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الرابعة – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م ،ولسان العرب ٦/٢٣٣ وما بعدها (نفس)

وفى الاصطلاح "هي الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية"[١]

والمقصود بأحوال الصحابة النفسية كل ما ينسب إلى النفس من قول أو فعل أو عمل، سواء أكان إرادياً أم غير إرادي، ظاهراً أم باطناً، وذلك عندما يكون ناتجاً عن مواقف وأحداث تنعكس على النفس الإنسانية، فتحدث فيها استجابة معينة، سواءً أكانت لفظية أم حركية، إرادية أم غير إرادية[٢]،وهو ما حاولت الدراسة استنباطه من وراء النصوص التي صورت هذه الأحوال، وأظهرت خباياها.

وتدل الوفاة في كتب اللغة على التمام والكمال والاستيفاء ففي مقاييس اللغة "الواو والفاء والحرف المعتلّ: كلمةٌ تدلُّ على إكمالٍ وإتمام. منه الوَفاء: إتمام العَهْد وإكمال الشَّرط. ووَفَى: أوْفَى، فهو وفِيٌّ. ويقولون: أوْفَيْتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيْتَه إيّاهُ وافياً. وتوفَّيْتُ الشَّيءَ واستَوْفَيْته؛ [إذا أخذتَه كُلّه] حتَّى لم تتركْ منه شيئاً. ومنه يقال للميِّت: تَوفَّاه الله."[٣]

(١) معجم التعريفات للجرجاني ص ٢٠٤

(٢) ينظر :التعبير القرآني والدلالة النفسية تأليف الدكتور/ عبد الله محمود الجيوشي ص ٤١،٤٢ – ط: دار الغوثانى للدراسات القرآنية – دمشق –حلبوني – الطبعة الثانية – ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٢م.

(٣) معجم مقاييس اللغة ١٢٩/٦(وفى)

وفى الاصطلاح هو" الإماتة وقبض الروح وعليه استعمال العامة أو الاستيفاء وأخذ الحق وعليه استعمال البلغاء " [١].

والبرية هي الخليقة ففي اللسان:" والبَرِيَّةُ أَيضاً الخَلْق بلا هَمْزٍ .... مِنْ بَرَأَ اللّهُ الخَلْقَ أَي خَلَقَهُم والبَرِيَّةُ الخَلْقُ وأَصْلُها الهمْزُ وقد تركَت العَرَبُ هَمْزَها ونظِيرهُ النبيُّ والذُّرِّيَّةُ "[٢]

المطلب الآخر

نبذة مختصرة عن سيدنا أبى بكر وعمر والسيدة فاطمة الزهراء - رضوان الله عليهم -

أولًا: سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه وأرضاه - :

اسمه ولقبه وكنيته:

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التميمي أبو بكر الصديق بن أبي قحافة خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .[٣]

مولده وحياته:

---

(١) الكليات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبى البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي – تـ : د. عدنان درويش ومحمد المصري – ص:٣١٣ – ط:مؤسسة الرسالة – بيروت –الطبعة الثانية – ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

(٢) لسان العرب ٣١/١ (برأ)

(٣) ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني تحقيق /الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ،والشيخ على محمد معوض – ١٠١،١٠٢/٤ –ط: دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

ولد – رضى الله عنه – بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، صحب النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، وسبق إلى الإيمان به، واستمر معه طول إقامته بمكة، ورافقه في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها إلى أن مات، وكانت الراية معه يوم تبوك، وحج في الناس في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع، واستقر خليفة في الأرض بعده، ولقبه المسلمون خليفة رسول الله، وكان –رضى الله عنه – رجلا مؤلفًا لقومه محببًا سهلًا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلمهم مما كان منها من خير أو شر، وكان تاجرًا ذا خلق ومعروف، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به، فأسلم على يديه عثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف.[١]

وفاته:

توفى رضى الله عنه وأرضاه يوم الاثنين في جمادى الأولى سنة ثلاث عشر من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة.[٢]

ثانيا: سيدنا عمر بن الخطاب – رضى الله عنه وأرضاه - :

اسمه ولقبه وكنيته:

هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي رضي الله عنه: ابن عبد العزى بن رياح بالتحتانية ابن عبد الله بن قرط بن رزاح بمهملة ومعجمة وآخره مهملة ابن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي أبو حفص أمير المؤمنين.[٣]

(١) ينظر: الإصابة ٤/١٠٢،١٠١

(٢) ينظر: الإصابة ٤/١٠٤

(٣) ينظر: الإصابة ٤/٢٧٩

مولده وحياته:

ولد رضى الله عنه وأرضاه بعد الفجار الأعظم بأربع سنين وذلك قبل المبعث النبوي بثلاثين سنة وقيل إنه ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، وكان إليه السفارة في الجاهلية، وكان عند المبعث شديدًا على المسلمين، ثم أسلم فكان إسلامه فتحا على المسلمين، وفرجا لهم من الضيق.(١)

وفاته: طعن عمر – رضى الله عنه – يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة أربع وعشرين، وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وواحدًا وعشرين يومًا .(٢)

ثالثاً: السيدة فاطمة الزهراء –رضى الله عنها وأرضاه - :

اسمها ولقبها وكنيتها :

هي فاطمة بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سيدة نساء العالمين أمها خديجة بنت

خويلد – رضى الله عنه وأرضاها – كانت تكنى بأم أبيها.(٣)

مولدها وحياتها:

كانت هي وأم كلثوم أصغر بنات رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وقد اختلف: في أيتهن أصغر سنًا، وكانت أحب الناس إلى رسول الله – صلى الله عليه

---

(١) ينظر: الإصابة ٢٧٩/٤

(٢) ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة للإمام عز الدين أبى الحسن على بن محمد الجزري ابن الأثير – تـ/الشيخ خليل مأمون شيحا – ٣٦٤/٥ – ط: دار المعرفة – بيروت – لبنان –الطبعة الأولى – هـ ١٤١٨ – ١٩٩٧م.

(٣) ينظر: أسد الغابة ٣٦٤/٥

وسلم – وزوجها من علي بعد أحد، وقيل : تزوجها علي بعد أن ابتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة بأربعة أشهر ونصف، وابتنى بعدها بعد تزويجه إياها بسبعة أشهر ونصف، وكان سنها يوم تزويجها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر في قول، وانقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا منها.(١)

وفاتها:

توفيت – رضى الله عنها وأرضاها – لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة وكان عمرها تسعًا وعشرين سنة.(٢)

المبحث الأول

الحالة النفسية لسيدنا أبى بكر الصديق عند وفاة خير البرية

(صلى الله عليه وسلم)

سيدنا أبو بكر الصديق – رضى الله عنه وأرضاه – هو رفيق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصديقه، وصفيه من خلق الله وحبيبه، أول من أجاب دعوته، وأيد حجته، ونشر كلمته، وقوى عزيمته، اصطفاه النبي –صلى الله عليه وسلم – ليكون رفيق هجرته، وخليفة إمامته، ممهدا إياه لتلقى إليه مقاليد الدعوة، ثقة في رجاحة عقله وحكمته، فأخفى عند وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم – في نفسه حزنًا شديدًا، وأبدى للناس تماسكاً فريداً، فقام في الناس منادياً، وبقضاء الله مخبراً، فالتف الناس حوله واستمعوه، وقبلوا كلامه وصدقوه.

فقد روى البخاري في صحيحه فقال:{حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أخبرني أَبُو سَلَمَةَ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ –

(١) ينظر: أسد الغابة٥/٣٦٤

(٢) ينظر أسد الغابة ٥/٣٦٩

رضى الله عنه – أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَيَمَّمَ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – وَهْوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها.}[1]

التعبير بالإخبار في هذا المقام في حقيقته ينبئ عن شيوع هذا المصاب العظيم والخطب الجليل الذى أصاب القاصي والداني، واهتزت له الجبال الرواسي، ورق له كل قلب غليظ قاس، فالإخبار يكون من أكثر من واحد، أما التحديث فيكون من واحد عن واحد[2]،فتنبيها إلى هذا جاء تكرار الإخبار بما يحمله من معنى في [أخبرني أبو سلمة أن عائشة أخبرته].

وانعقاد المعنى على تصوير حال سيدنا أبى بكر – رضى الله عنه – إزاء هذا الحدث هو الذى رشح إلى تقديمه في (أخبرته أن أبا بكر – رضى الله عنه – أقبل) مع إمكان التعبير بقولها(أخبرته فقالت أقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنح)، ولكن عناية السياق بتصوير حال سيدنا أبى بكر دعت إلى إيثار هذا البناء التركيبي، لاسيما وأن التأكيد بـ(أنَّ) بما يحققه من لفت للذهن يتلاءم مع تصوير هذا الموقف المتفرد لسيدنا أبى بكر، والذى فطن إليه الحبيب

(١) صحيح البخاري للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة الجعفي البخاري – اعتنى به/أبو عبد الله محمود بن الجميل – كتاب المغازي – باب مرض النبي (صلى الله عليه وسلم) ووفاته – ٢/٣٨٠ –حديث رقم ٤٤٥٣،٤٤٥٢– مكتبة الصفا – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

(٢) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري – تحقيق/حسام الدين القدسي – ص ٢٨ – ط:مكتبة القدسي – القاهرة – ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م

المصطفى–صلى الله عليه وسلم – عندما جعله خليفة له في الصلاة بالمسلمين حال مرضه، يشعر بهذا ويشى به الإشباع[١]،والتفصيل[٢] الذى اتسم به هذا السياق من وصف وتصوير للحالة التي أقبل عليها، والمكان الذى أقبل منه.

فالتفصيل والإشباع لم يكن بغاية إطالة الكلام بقدر ما كان لفتًا لما سبقت الإشارة إليه، يؤكد هذا عدولها – رضى الله عنها – عن قولها (حتى نزل عن فرسه، فدخل في المسجد، فلم يكلم الناس بشيء، كما يوحى بهذا سمت السياق في الظاهر.

وجاء التعبير بـ(الإقبال) الذى يكون من قبل الوجه[٣] ؛ليضع بين أيدينا صورة الصحابة وهم ينتظرون قدوم سيدنا أبى بكر، ويترقبون وصوله ؛ليخفف عنهم وقع هذا المصاب، ويكشف لهم عن حقيقته، بعد أن اختلطت عليهم الأمور، وذهب عنهم الضياء والنور، ودعوا بالويل والثبور يهمس بهذا نص السياق بقوله (فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة).

وهذا التطلع هو الذى دعا إلى تقييد (الإقبال) بحرف الاستعلاء (على)[٤] الذى يشى بالظهور، والذى ينشر إيحاء بمدى السرعة التي كان عليها –رضى

(١) الإشباع: كلُّ شيء تُوَفِّرُه فقد أَشْبَعْتَه حتى الكلام يُشْبَعُ فَتُوَفَّرُ حروفُه . ينظر: لسان العرب ١٧١/٨ (شبع) .

(٢) التفصيل: هو بيان وتوضيح بالنسبة إلى الإجمال. ينظر: الكليات ص ٢٩٧.

(٣) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري ص ٢٥٢.

(٤) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني – تأليف: أبى محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي – تـ/ د فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل – ص ٤٧٦ – ط :دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

الله عنه – حال إقباله بسبب بعد المسافة الذى يدل عليه التقييد بـ(من) الابتدائية[١]، وتلاؤما مع الخفة والعجلة التي كانت تحدو به في إقباله نتيجة عظم المصاب، جاء التقييد بـ(الباء) في (من مسكنه بالسنح)،لأن (الباء) بأصل دلالتها على الإلصاق[٢]أقرب إلى تصوير الخفة والعجلة وهذا بخلاف(في) التي تنشر بأصل دلالتها على الظرفية[٣]هالات الاستقرار التي تتنافى مع مشاعر هذا الموقف العصيب.

والسيدة عائشة – رضى الله عنها – وهى ترصد حال سيدنا أبى بكر وضعت أثناء كلامها علامات كان من أبرزها تنوع أدوات العطف بين التعبير بـ(حتى)مرة، وبـ(الفاء)أخرى، وبـ(ثم)ثالثة، وبـ(الواو)رابعة، فتنوع العطف جاء ليحمل بين طياته أموراً عدة منها :تحقيق اللفت والتنبيه، ومنها مراعاة الحالة النفسية للصحابة، ومنها إشارتها إلى أبرز الأحداث التي فعلها الصديق – رضى الله عنه – في هذا المقام المشحون بالانفعالات.

فنجد أن (حتى) في قولها(حتى نزل) – بما تتسم به من طول يلائم حالة الإشباع والتفصيل التي اتسم بها هذا السياق – جاءت لتصور للسامع حالة الاستبطاء[٤] النفسية التي كانت تشعر بها، ويشعر بها الصحابة، وهم ينتظرون قدوم سيدنا أبى بكر ؛ليخبرهم خبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولعل هذا ما أرادت السيدة عائشة أن تقرره بتكرارها لـ(حتى) في (حتى دخل على عائشة).

(١) ينظر :الجنى الداني ص ٣٠٨

(٢) ينظر :الجنى الداني ص ٣٦

(٣) ينظر: الجنى الداني ص ٢٥٠

(٤) الاستبطاء: خاصية يقصدها البليغ في مقام يقتضيه. ينظر: الكليات ص٤٢٢.

وهذا الاستبطاء هو استبطاء شعوري نفسى يدركه من ينتظر شيئا عظيماً وهو مهموم، فهو يشعر بالوقت وكأنه يمر بطيئاً ثقيلاً، وهذه حالة كثيراً ما ذكرها الشعراء في أشعارهم، كما ورد على لسان امرئ القيس في قوله:

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لمّا تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل[1]
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل[2]

وجاءت (الفاء) في (حتى نزل ..فدخل المسجد.. فلم يكلم الناس .. فتيمم رسول الله)لتصف وتصور السرعة والعجلة التي كانت تحدو بأبي بكر ليدرك ما أصاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم – ،وكأن السيدة عائشة –رضى الله عنها – لما حققت معانى الاستبطاء التي كانت تشعر بها، ويشعر بها الصحابة سارعت لتصف الحالة الحقيقة التي كان عليها سيدنا أبو بكر ؛ولهذا لم يحتفل السياق بإشباع هذه البنية التركيبية، فلم تقل :(حتى نزل عن فرسه، فدخل في المسجد، فلم يكلم الناس بشيء) كما هو سمت الحديث، وكأن البنية نفسها جاءت لتلائم السرعة التي كان عليها الصديق –رضى الله عنه – .

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن إعادة ذكر الفرس ثانية لا يتعلق به غرض السياق، فهو لم يأت إلا لوصف وتصوير الحالة التي أقبل عليها، وكذا الشأن في ذكر دخول المسجد فهو لم يأت إلا لوصف الحدث بشيء من الدقة والتفصيل عناية واهتمامًا، ونفت – رضى الله عنها – الكلام بـ(لم)، ولم تنفه

(١) الكلكل: كَلْكَل البعير وصدرُه الذي يدكُّ به الشيءَ تحتَه. ينظر: معجم مقاييس اللغة ٢١٨/١ (كلكل) .

(٢) ديوان امرئ القيس – ضبطه وصححه: الأستاذ/ مصطفى عبد الشافي – ص ١١٧ – ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الخامسة – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

بـ(ما)، فقالت : (فلم يكلم الناس)، ولم تقل (فما كلم الناس)؛ لأن (لم) أوكد في النفي من (ما) فهي حرف (نفى وجزم وقلب)[1] بخلاف (ما) التي لا تفيد سوى النفي، إضافة إلى أنها بارتباطها بصيغة المضارع تسهم في استحضار هذا الحدث الذى يدل على حالة الثبات التي كان عليها –رضى الله عنه – إذا ما قورن بسيدنا عمر بن الخطاب –رضى الله عنه – كما سيأتي، ولعل هذا هو سر عناية السيدة عائشة بهذا الجزء من السياق متمثلة في النفي بـ(لم) خاصة، واستحضار هذا الحدث بصيغة المضارع، إلى جانب دلالات العموم والكثرة التي ينشرها إيثار ذكر (الناس) على قولها (فلم يكلم أحدًا).

وعطفت –رضى الله عنها – الدخول عليها بـ(حتى) لأنها مع تلاؤمها مع حالة الاستبطاء الشعوري الذى شعرت به، وشعر به الصحابة – رضوان الله عليهم – كأنها تستوقف النفوس عند لحظة دخول أبى بكر –رضى الله عنه – على سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؛لتشى بأنها كانت متطلعة تنظر، وتراقب حالة سيدنا أبى بكر وما يجرى منه في هذه اللحظات العظيمة الأسى ؛ولهذا قيدت الدخول بـ (على) لأنها بدلالتها على الاستعلاء تتلاءم مع النظر، والمراقبة، والاطلاع، وتصف السرعة والعجلة التي كان عليها الصديق – رضى الله عنه – ولفتًا إلى هذا وضعت الظاهر موضع المضمر فقالت (دخل على عائشة).

(١) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك لأبى محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري – ٢٠١/٤ – ط: دار الجيل – بيروت – الطبعة الخامسة – ١٩٧٩م.

والسيدة عائشة – رضى الله عنها – بتقييد الدخول بكونه عليها كأنها ترشد إلى حالة الثبات واليقظة التي كانت عليها في هذا الموقف الرهيب الذى زلزل الصحابة، وغل ألسنتهم، وشل أفكارهم، واعتصر قلوبهم، وعبرت بـ(التيمم) خاصة ؛لأنه إقبال من جهة الوجه بخلاف غيره فهو قصد الشيء من أمام[١]، وهذا يناغى ذكر الوجه، والكشف عنه، وفيه بصفات الهمس الذى تغلب عليه رقة تتناغم مع حالة الأسى والحزن، وخفقان القلب التي كان عليها الصديق – رضى الله عنه – وهو مقبل على رفيق حياته ليتلمس حاله، وهذا ما لا يحققه التعبير بـ(الإقبال) أو(القصد)،لاسيما وأنه يلائم برقته الدخول، وكأنها بذا لاءمت بين وصف الخارج والداخل.

وعبرت بـ(رسول الله) دون (النبي) مع أنه برقته يلائم حالة الأسى، والخفقان تنبيها بالإضافة إلى لفظ الجلالة على عظم المصاب؛ لأن غايتها الأولى في هذا السياق – فيما يبدو – هي تصوير ووصف حالة الثبات التي كان عليها الصديق – رضى الله عنه – رغم عظم المصاب، وعظم الحزن والأسى، وعظم الفجيعة.

وجاءت بجملة الحال فقالت:(وهو مغشى بثوب حبرة) ؛لأنها برغم ما فيها من حزن وألم بفراق رسول الله –صلى الله عليه وسلم – أرادت أن تقرر أمراً تشريعياً يتعلق بجواز رؤية الميت بعد إدراجه في ثيابه سواء أكفن أم لم يكفن، وهذا ما أدركه البخاري –رحمه الله – عندما ترجم لهذا الحديث بقوله: (باب الدُّخُولِ عَلَى الْمَيِّتِ بَعْدَ الْمَوْتِ إِذَا أُدْرِجَ فِى أَكفَانِهِ)[٢].

(١) ينظر: الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري ص ١٠٢

(٢) ينظر: صحيح البخاري ٢٧٣/١

وفى هذا ما يجلى عظم الثبات الذى تحلت به الصديقة بنت الصديق في هذا المقام المفعم بالحزن والأسى، فعنايتها بهذا الحدث هي التي جعلتها تأتى بجملة الحال، وتجعلها في إثبات مستقل بعطفها بـ (الواو) مع إمكانها التعبير بقولها: (فتيمم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مغشيً بثوب حبرة)، ولعل مقصدها إلى هذا هو ما جعلها تأتى بأسلوب التتميم بوصف هذا الثوب بأنه (حبرة)،وهو ثوب يمانٍ مخطط غالى الثمن[1]،بل ولعل هذا هو سر التعبير عن الإزالة بالكشف بما يحمله من معانى الوضوح والبيان، وزيادة في اللفت عدت الكشف بـ(عن) الدالة على المجاوزة لمطل الكلام، وإطالة الحديث عنه.

وفى دخول (عن) على قوله (وجهه) بتكرار (الهاء) ما يجعل الكلمات وكأنها تئن حزناً وأسفاً، وهذا بخلاف (فكشف وجهه) فإن (الهاء) بفتحها تلائم مقام النشوة والفرح، وهو مخالف لهذا المقام المشحون بالحزن والأسى.

وعندما نقف على قولها (ثم أكب) نلحظ أن الانكباب بأصل دلالته على السقوط على الوجه[2] يحمل بين طياته مع دلالات السرعة نتيجة شدة الشوق – معانى اليأس، والإحباط، والقنوط، وزوال الرحمة، وظن الهلاك التي أفعم بها صدر الصديق –رضى الله عنه – في هذه اللحظة، بل وتحمل الكثير من المعاني

(١) ينظر: لسان العرب ١٥٩/٤ ، وفتح الباري شرح صحيح البخاري – تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي – رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي – قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب – ٢٧٧/١٠ – ط: دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩هـ

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن – تأليف: أبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني –تـ: محمد سيد كيلاني – ص ٤٢٠ – ط: دار المعرفة – بيروت – دون.

التي تجول في الخواطر، وتعجز عن تحصيلها، والتعبير عنها الأسنة والألسنة، ولعل هذا ما أرادت أن تومئ إليه السيدة عائشة من وراء استيقاف العبارات بدلالات التراخي التي تفيد ها (ثم) في هذا السياق، والتي جاءت لتلفت الذهن إلى عظم لحظات الحزن التي أصابت سيدنا أبا بكر وقت أن تأكد من موت الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وسلم)،وهى بدلالتها على التراخي تلائم حالة التريث التي كان عليها وهو يتلمس حال النبي –صلى الله عليه وسلم – ، وما أصابه، ولهذا جاء التعبير بالانكباب بما يحمله من هالات السرعة، والقوة والتي جاءت(الفاء) في (فقبله) لتصورها أعظم تصوير.

وفى تقييد الفعل (أكب) بـ (على) مع دلالات الاستعلاء دلالات الاستيعاب نتيجة شدة الشوق، وشدة التعلق، وعظم الحزن، ولما لم يكن البكاء عقب التقبيل ومترتب عليه، وإنما كان مصاحباً للانكباب جاءت –رضى الله عنها – بـ(الواو) – فيما يحكى عنها سيدنا أبو سلمة – فقالت(فقبله وبكى) إذ هي لمطلق الجمع[1] .

واستمراراً منها –رضى الله عنها – على استيقاف النفوس عند الأحداث التي لها خطرها في هذا المقام جاء العطف بـ (ثم) في (ثم قال) وذلك لأنه أعظم حدث ظل الصحابة – رضوان الله عليهم – ينتظرونه من سيدنا أبى بكر، وكأنها تريد أن تلفت الذهن إلى ما صدر عن سيدنا أبى بكر في هذا المقام، والذى حسم الأمر في هذا الموقف الرهيب الذى زلزلت فيه أفئدة الصحابة، وزاغت أبصارهم، وهو من أبرز ما يؤكد لنا حالة الثبات النفسية التي كان عليها سيدنا أبوبكر رغم ما أصابه من حزن، وألم، ولا يمنع هذا أن تكون ثمة برهة حقيقية

(١) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني – للإمام أحمد بن عبد النور المالقي – تـ: أحمد محمد الخراط – ص٤١٠ – ط:مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق .

من الوقت قد كانت بعد أن أكب سيدنا أبو بكر على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبكى، وبين قوله : (بأبي أنت وأمي) نتيجة شدة التحسر والتحزن، وأن تكون هي التي أحوجت إلى دلالات التراخي التي تفيد ها (ثم) وهو ما ستجليه روايات هذا الحديث التي اهتمت بتصوير حالة الحزن الشديدة التي أصابت الصديق –رضى الله عنه – عند مشاهدته لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد وفاته، والتي يومئ إليها السياق في هذا المقام الذى يهتم بتقرير حالة الثبات التي كان عليها الصديق – رضى الله عنه – بحذف متعلق الجار والمجرور في (بأبي أنت وأمي)، إذ أصل التعبير (مفدى بأبي أنت وأمي) أو (أفديك بأبي أنت وأمي)،وحالة التحسر، والتحزن، وتقطع الأنفاس التي كان عليها الصديق –رضى الله عنه – هي التي تكمن وراء العدول عن التلفظ بجملة (يا رسول الله) عقب التعدية ؛لأن التلفظ بها يأتي في مقام الاستئناس برسول الله، والتلذذ بذكر اسمه، وهذا منافٍ لمقامي الحزن والأسى. وفيه تلاؤم مع مقام الفقد.

وجاء – رضى الله عنه – بأسلوب القسم[1] (والله) ليراعي حال الصحابة المنكرين لوفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – نتيجة الصدمة الشديدة التي أفقدتهم توازنهم، وشلت تفكيرهم، وإدراكهم، وجعلتهم يتحدثون، ويصرحون بكلام ما أنزل الله به من سلطان.

وأشعر أن سيدنا أبا بكر بأسلوب القسم هذا كأنه يراعى حال نفسه التي تكاد تنكر ولا تصدق وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم – بسبب ما يختلج فيها من حزن وأسى رغم معرفته وإدراكه لنعى المولى – سبحانه وتعالى – لنبيه

(١) القسم بفتحتين اسم من الإقسام وهو أخص من اليمين والحلف الشاملين للشرطية الآنية. ينظر: الكليات ص ٧٢٥.

بقوله { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}[١]،ولكنها شدة الحب، وشدة التعلق التي تكاد تنكر الواقع، ولا تصدقه.

وتلاؤما مع دلالات الإلزام والتأكيد المفادة من قوله –تعالى - :{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}، جاء القسم مقترنًا بتقييد الجمع المنفى بـ (على) ؛ لأنها بدلالتها على الاستعلاء تحمل معانى الإلزام والتأكيد، وتلائم حالة الشدة والمعاناة التي كان عليها –صلى الله عليه وسلم – ، والتي صورها بقوله: (إن للموت لسكرات)[٢]، وصورها سيدنا أبو بكر – رضى الله عنه – بتنكير (موتتين) أي عظيمتين في هولهما، وشدتهما، وعنائهما، وكذا بتعريف (الموتة) دلالة على كمالها، ولهذا أعاد التقييد بـ (على) في (أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها) مقترنا باصطفاء (كتبت عليك)، وإيثارها على (فرضت عليك) ؛ لأن في الكتابة ما يلائم معانى الإثبات، والتأكيد، والإلزام، فهي عرفياً أوثق من الفرض، ولهذا يقول – سبحانه وتعالى – : {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}[٣].

وسيراً على نهج التأكيد الذى كأن الصديق –رضى الله عنه –يدافع به حالته النفسية التي سيطر عليها الحزن والأسى حتى كادت تنكر موته –صلى الله عليه وسلم – ،كما أنكرها بعض الصحابة عياناً جهاراً جاء بـ(قد) التحقيقية[٤] فقال (فقد متها)، ولا يبعد أن يكون هذا هو سر من أسرار تكرار ذكر الموت في غضون هذا السياق الذى لم يتجاوز البضع كلمات.

(١) سورة الزمر الآية (٣٠)

(٢) صحيح البخاري – كتاب المغازي – مرض النبي (صلى الله عليه وسلم) ووفاته ٣٧٧/٢.

(٣) سورة الرعد من الآية (٣٨)

(٤) ينظر: رصف المباني ص٣٩٢

واللفت والتنبيه إلى حقيقة هذا الأمر الذى أنكره بعض الصحابة، واستبعده الآخرون هو ما دعاه –رضى الله عنه – إلى الإتيان بـ (أما) التفصيلية [١] بما يشع منها من تشويق، وتهيئة؛ ولعل هذا ما قصد إليه القرآن عندما أكد قوله – تعالى – :{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} مراعاة لاستغراب السامعين، واستبعادهم، ودفعاً لإنكارهم، ومجادلتهم .

ومن أبرز العناصر التعبيرية التي اشتمل عليها هذا السياق، والتي أرادت السيدة عائشة من ورائها أن تظهر درجة الثبات التي كان عليها الصديق –رضى الله عنه – إتيانه بجملة الصلة التي تأتى في الأمر الظاهر المعلوم[٢].

وقد اختلف شراح الحديث في المقصود بالموتتين في هذا الحديث يقول ابن حجر: "وَأَشَدّ مَا فِيهِ إِشْكَالًا قَوْل أَبِي بَكْر لَا يَجْمَع اللَّه عَلَيْك مَوْتَتَيْنِ، وَعَنْهُ أَجْوِبَة : فَقِيلَ هُوَ عَلَى حَقِيقَته وَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى الرَّدّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ سَيَحْيَا فَيَقْطَع أَيْدِي رِجَال، لِأَنَّهُ لَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَلَزِمَ أَنْ يَمُوت مَوْتَة أُخْرَى، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَكْرَم عَلَى اللَّه مِنْ أَنْ يَجْمَع عَلَيْهِ مَوْتَتَيْنِ كَمَا جَمَعَهُمَا عَلَى غَيْره كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارهمْ وَهُمْ أُلُوف، وَكَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَة، وَهَذَا أَوْضَح الْأَجْوِبَة وَأَسْلَمهَا . وَقِيلَ أَرَادَ لَا يَمُوت مَوْتَة أُخْرَى فِي الْقَبْر كَغَيْرِهِ إِذْ يَحْيَا لِيُسْأَل ثُمَّ يَمُوت ...، وَقِيلَ لَا يَجْمَع اللَّه مَوْت نَفْسك وَمَوْت شَرِيعَتك . وَقِيلَ كَنَّى بِالْمَوْتِ الثَّانِي عَنْ الْكَرْب، أَيْ لَا نَلْقَى بَعْد كَرْبِ هَذَا الْمَوْت كَرْبًا آخَر ".[٣]

(١) تنظر: دلالة أما على التفصيل في : كتاب معانى الحروف – تأليف: أبى الحسن على بن عيسى الرماني النحوي – ص ١٢٩ – دار نهضة مصر – القاهرة

(٢) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري – د/ محمد محمد أبو موسى – ص ٧١ –مكتبة وهبة – القاهرة.

(٣) فتح الباري ٣ /١٣٨

وفى هذه التوجيهات دلالة على عنايته رضى الله عنه وأرضاه بتأكيد خبر وفاته –صلى الله عليه وسلم – مع ما فيها من تأكيد لشدة الألم، والحسرة التي أصابتهم إزاء هذا الحدث والتي اقتضت نفى الجمع خاصة بما فيه من معنى المضاعفة.

يقول بن فارس:" الجيم والميم والعين أصلٌ واحد، يدلُّ على تَضَامٍّ الشَّيء. يقال جَمَعْتُ الشيءَ جَمْعاً".(١)

وفى الرأي القائل بأن المقصود نفى الجمع بين موته صلى الله عليه وسلم –وموت شريعته إيحاء برغبة الصديق – رضى الله عنه وأرضاه – في تهوين الشدة على نفسه وعلى الصحابة من حوله، وذلك ببث الطمأنينة، والسكينة في نفوسهم ودعوتهم إلى التكاتف ورأب الصدع لجمع شمل الأمة، وتجاوز المحنة في وقت اشرأبت فيه رؤوس النفاق لتجد سبيلًا للقضاء على الدعوة، والنيل منها، ولعل الرأى القائل بأن المقصود نفى موته فى القبر من أعظم الوسائل التي تحقق ذلك عندما يعلمون أن الحبيب – صلى الله عليه وسلم – ما زال بين أظهرهم يرقب أحوالهم، ويدعو لهم .

وبعد أن اهتمت السيدة عائشة – رضى الله عنها – في السياق السابق ببيان حالة الثبات التي كان عليها الصديق – رضى الله عنه – اهتمت في سياق آخر ببيان شدة الحزن والألم التي أفعم بها صدره –رضى الله عنه – رغم ثباته، وهو ما تجليه روايات هذا الحديث.

فقد روى ابن سعد في الطبقات الكبرى فقال "أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن أبي سلمة عن أبي عمران الجوني عن يزيد بن بابنوس عن عائشة

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة ٤٢٦/١

قالت : لما توفى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جاء أبو بكر فدخل عليه فرفعت الحجاب فكشف الثوب عن وجهه فاسترجع فقال مات والله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم تحول من قبل رأسه فقال وانبياه ثم حدر فمه فقبل جبهته ثم رفع رأسه فقال واخليلاه ثم حدر فمه فقبل جبهته ثم رفع رأسه فقال واصفياه ثم حدر فمه فقبل جبهته ثم سجاه بالثوب ثم خرج "[1]

وروى الترمذي في الشمائل المحمدية فقال :"حدثنا نصر بن علي الجهضمي، قال: حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار، عن أبي عمران الجوني، عن يزيد بن بابنوس، عن عائشة، أن أبا بكر، دخل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه ووضع يديه على ساعديه، وقال : « وانبياه، واصفياه ، واخليلاه "[2]

وروى الإمام أحمد فى مسنده فقال "حَدَّثَنَا بَهْزٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، أخبرني أَبُو عِمْرَانَ الجوني، عَنْ يَزِيدَ بْنِ بَابَنُوسَ، قَالَ: ذَهَبْتُ أَنَا وَصَاحِبٌ لي إِلَى عَائِشَةَ فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْهَا فَأَلْقَتْ لَنَا وَسَادَةً وَجَذَبَتْ إِلَيْهَا الْحِجَابَ فَسَأَلَهَا عن مباشرة الحَائِضِ، ثُمَّ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا مَرَّ ببابي مِمَّا يُلْقِى الْكَلِمَةَ يَنْفَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ مَرَّ أَيْضًا فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، قُلْتُ: يَا جَارِيَةُ ضَعِى لي وِسَادَةً عَلَى الْبَابِ

(١) الطبقات الكبرى – تأليف محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصرى الزهري – تـ: إحسان عباس –ذكر تقبيل أبى بكر الصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته – ٢/٢٦٥ – ط: دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٦٨م– .

(٢) الشمائل المحمدية الخصال المصطفوية للإمام أبى عيسى محمد بن سورة الترمذي –تـ/سيد عباس الجليمى –باب ما جاء في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم –ص٣٣٣ – حديث رقم٣٩٢ – ط: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت –الطبعة الأولى – ١٤١٢هـ.

وَعَصَبْتُ رأسي فَمَرَّ بي فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ مَا شَأْنُكِ؟ قُلْتُ: أَشْتَكِى رأسي، قَالَ: وأَنَا وَارَأْسَاهْ فَذَهَبَ فَلَمْ يَلْبَثْ إلاَّ يَسِيرًا حَتَّى جِيءَ بِهِ مَحْمُولاً في كِسَاءٍ، وَبَعَثَ إِلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: إني قَدِ اشْتَكَيْتُ وإني لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدُورَ بَيْنَكُنَّ فَأْذَنَّ لي فَلأَكُنْ عِنْدَ عَائِشَةَ، [أَوْ صَفِيَّةَ] فَأْذَنَّ له فكنت أوصبه وَلَمْ أكن أوصب أَحَدًا قَبْلَهُ، فَبَيْنَمَا رَأْسُهُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى مَنْكِبَىَّ إِذْ مَالَ رَأْسُهُ نَحْوَ رَأْسِى فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُ مِنْ رَأْسِى حَاجَةً فَخَرَجَتْ مِنْ فِيهِ نُطْفَةٌ بَارِدَةٌ فَوَقَعَتْ عَلَى ثُغْرَةِ نَحْرِى فَاقْشَعَرَّ لَهَا جِلْدِى فَظَنَنْتُ أَنَّهُ غُشِىَ عَلَيْهِ، فَسَجَّيْتُهُ ثَوْبًا، فَجَاءَ عُمَرُ، وَالْمُغِيرَةُ، فَاسْتَأْذَنَا فَأَذِنْتُ لَهُمَا، وَجَذَبْتُ الْحِجَابَ، فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَا غَشْيَاهْ مَا أَشَدُّ غَشْىَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قَامَا فَلَمَّا دَنَوَا مِنَ الْبَابِ، قَالَ الْمُغِيرَةُ: يَا عُمَرُ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: كَذَبْتَ بَلْ أَنْتَ رَجُلٌ تَحُوشُكَ فِتْنَةٌ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لاَ يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِىَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَرَفَعْ الْحِجَابَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ [يَا نَبِىَّ اللَّهِ] وَانَبِيَّاهْ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ حَدَرَ فَاهُ، وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاصَفِيَّاهْ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَحَدَرَ فَاهُ، وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، وَقَالَ: وَاخَلِيلاَهْ، مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَعُمَرُ يَخْطُبُ النَّاسَ [وَيَتَكَلَّمُ] وَيَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لاَ يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِىَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}، حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ. {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ. فَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ حَىٌّ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، فَقَالَ عُمَرُ:

وَإِنَّهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ، مَا شَعَرْتُ أَنَّهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا أَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ذُو شَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ فَبَايِعُوهُ فَبَايَعُوهُ"[1]

السيدة عائشة –رضى الله عنها – عندما أرادت أن تلفت الذهن إلى حالة الأسى، والحزن التي أصابت سيدنا أبا بكر بموت النبي –صلى الله عليه وسلم – صدرت حديثها بـ(لما) التعليقية، فقالت(لما توفى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وعدلت عن الفعل (مات) إلى (توفى) ؛لأنه بأصل دلالته على الإكمال والإتمام[2] كأنه يلائم ارتباط وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – باكتمال الدعوة، واستواء أركانها، وفى بنائه للمفعول إشعار بأنّ هذا إنما هو أمر الله وحكمه، وكأن الإضافة في(رسول الله) دون (النبي) قد جاءت لتنبه على هذا وتشى به.

ولما كان المقام وأصل الحدث في هذا السياق معقوداً على سيدنا أبى بكر، وتصوير حالته عند وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – عدلت –رضى الله عنها – عن قولها: (أبى) إلى (أبى بكر) إبرازًا لمكانة سيدنا أبى بكر، وموقفه، ومن ثم عبرت عن (الإتيان)بـ (المجيء) خاصة ؛لأنه بما فيه من قوة يتناغى مع الشدة والمعاناة التي كان عليها –رضى الله عنه – حال إتيانه، ويتناغم مع السرعة التي جاءت فاءات التعقيب لتصورها في (فدخل عليه.. فرفعت الحجاب.. فكشف الثوب.. فاسترجع.. فقال: مات رسول الله – صلى الله عليه وسلم –).

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل تأليف أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني – تحقيق: شعيب الأرنؤوط ،وعادل مرشد – مسند الصديقة عائشة بنت الصديق – رضى الله عنها – ٤٣/٣٤– الحديث رقم٢٥٨٤١–ط: مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

(٢) ينظر :معجم مقاييس اللغة ٩٨/٦

وجعلت –رضى الله عنها – مدخول (على) الضمير العائد على النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت :(فدخل عليه) بينما عبرت في السياق السابق فيما رواه أبو سلمة عنها بقولها:(حتى دخل على عائشة) ؛لأنها في المقام السابق أرادت أن تمطل الأحداث لتلائم حالة استبطائها، والصحابة لمجيء سيدنا أبى بكر بسبب ما سيطر عليهم من هم، وغم كما سبق، أما في هذا المقام فقد راعت ما عطف عليه من رفع الحجاب في (فدخل عليه، فرفعت الحجاب) وفيه سرعة تفصح عما أصابه –رضى الله عنه – من هم، وغم، ورغبة في استكشاف حقيقة هذا الأمر، ومصداقيته، وكأنه لا يرى أحداً سواه، ويرجع السر في عدم التعبير عن الدخول ب(الولوج) مع ما فيه من قوة، وسرعة تلائم الحدث[1] إلى مراعاة حالة الرقة التي كان فيها الصديق –رضى الله عنه – حسرة وأسى وهو يطلع على رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ليتثبت مما قيل، وهو ما جاءت (على) بدلالات الاستعلاء لتقرره وذلك بما تحمله من دلالات التطلع، والاستشراف.

وجاء تعبيرها بقولها:(فرفعت الحجاب) في غضون هذا السياق ؛لأنها كانت قد أرخته امتثالا لأمر الله عند دخول سيدنا عمر، وسيدنا المغيرة، وكأنها بهذا تشير إلى حالة الثبات النفسي التي كانت عليه الصديقة بنت الصديق في هذا المقام الرهيب الذى خارت فيه قوى أشد الصحابة، وأقواهم جسمانًا، وبنية، وكأنها تريد أن تبين أن هذا المقام بشدته وهوله وفظاعته، لم يشغلها عن تنفيذ أمر الله، وحكمه ؛ ولهذا اهتمت ببيان هذا الأمر الذى يبرز دور الإسلام في التربية، وامتثال الأوامر، وتنفيذ الطاعات، وفيه دلالة على قربها من سيدنا أبى بكر قربا يسهم في دقة تصوير الموقف، ورسم الأحاسيس، ووصف الخلجات .

(١) ينظر: الكليات ص٨٧٣

وجاء تقديم (الثوب) على القيد في (فكشف الثوب عن وجهه) لأنه يتعلق به أمر تشريعي ألا وهو جواز كشف الثوب عن الميت بعد تكفينه، وأنه لا شيء فيه، ولعل هذا هو سر تكراره في نهاية الحديث بقوله: (ثم سجاه بالثوب).

فأمثال هذه التعبيرات هي التي جعلت أستاذنا الدكتور/ (أبو موسى) يقول: "وحين أجد في الكلام مثل هذا يقع في نفسى أن المتكلم يضع للقارئ علامات فى كلامه؛ ليقف عندها ويمنحها مزيدًا من المراجعة لتعلق الغرض بها، إشباع الكلام هنا زيادة إضاءة حول هذا العنصر، فرق كبير بين أن تقول: مررت بقارئ، وأن تقول: مررت فإذا رجل قارئ يقرأ أنت في الأول لا تلفت إلى هذا القارئ، ولا تدل إلا على مجرد الإخبار، وفى الثاني الذى أشبعت فيه الكلام عنه، وقلت رجل قارئ يقرأ، تدل على أن لهذا القارئ قصة وحكاية وأن مغزى كلامك معصوب برأسه" [(١)].

وقولها:(فاسترجع) فسرته في الرواية الثانية بقولها:(إنا لله وإنا إليه راجعون)؛ وكأنها – رضى الله عنها – بإيثارها الإيجاز[(٢)] في قولها: (فاسترجع) تصف، وتصور شدة وقع هذا الخبر على نفسها –رضى الله عنها – وهو ما ألجأها إلى الاختصار كناية[(٣)]عن تقطع أنفاسها، وحتى كأنها لم تستطع أن تردد

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري ص ٣٨٦.

(٢) الإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط. ينظر: مفتاح العلوم للإمام سراج الملة والدين أبى يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكي – ت/نعيم زرزور – ص٢٧٧ – ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان –الطبعة الثانية – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م

(٣) الكناية: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى معه. ينظر: شرح التلخيص للشيخ أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود بن أحمد البابرتي – دراسة وتحقيق :د/محمد مصطفى رمضان صوفية – ص ٥٩٩ – ط:المنشأة العامة –طرابلس – الجماهيرية الليبية –الطبعة الأولى – ١٣٩٢هـ – ١٩٨٣م.

ما قاله الصديق –رضى الله عنه – في هذا المقام أسفًا وحسرةً، وفى هذا إيماءة إلى أنها لم تدرك لصغر سنها وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم – إلا بعد قول أبيها، وعبرت في روايات هذا الحديث بقولها: فقال :(إنا لله وإنا إليه راجعون)؛ لأنها أرادت أن تنقل نص كلام سيدنا أبى بكر في هذا المقام الذى يجذب الانتباه، ويشحذ النفوس تعليما لأمة الحبيب (صلى الله عليه وسلم)،وتنويها بعظم هؤلاء الذين حملوا أمر الدعوة، وامتثلوا أمر الله –تعالى – .

وجاء التصريح بقوله: (مات والله رسول الله – صلى الله عليه وسلم –) مقرونًا بأسلوب القسم ليصور شدة وقع هذه المصيبة على نفس الصديق –رضى الله عنه – وكأنه به وبهذا التكرار، والترداد لقوله : (إنا لله وإنا إليه راجعون ...مات – والله –رسول الله) كأنه يريد أن ينزع الإنكار الذى يخالج نفسه من شدة وقع هذه المصيبة عليه، إضافة إلى أنه يقابل حالة الإنكار التي سيطرت على الصحابة وعلى رأسهم سيدنا عمر – رضى الله عنه – .

وجاء العطف بـ(الفاء) في (فاسترجع فقال: مات والله رسول الله) دون (فاسترجع وقال) مع أن قوله:(مات – والله – رسول الله) لم يكن تفسيراً للاسترجاع ؛ليشير إلى سرعة إدراك سيدنا أبى بكر ومعرفته لوفاة النبي –صلى الله عليه وسلم – وأنه لم يخالجه أدنى شك في ذلك أو تردد، فما أن رآه إلا وأدرك ما به.

وجاءت الإضافة إلى لفظ الجلالة في (رسول الله) لتنبه إلى أن حقيقة النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه رسول من عند الله يصيبه ما أصاب الرسل من قبله، وهذا ما لا يحققه التعبير بقوله : (مات والله النبي)، وفى الإضافة مع أسلوب القسم تذكير بالله – تعالى – ، وتذكير بوحدانيته – جل في علاه – ، ولم يؤكد –رضى الله عنه – كلامه بأسلوب القسم في الرواية الثالثة، وإنما قال

(إنا لله وإنا إليه راجعون مات رسول الله) اكتفاء بالتكرار الذى يحمل مع دلالات التأكيد ما يحمله أسلوب القسم ففي هذه الرواية كرر قوله :مات رسول الله)مرتين.

وآثرت السيدة عائشة –رضى الله عنها – العطف بـ (ثم) في (ثم تحول من قبل رأسه) لتستوقف بدلالات التراخي التي تفيدها النفوس وهى تنتقل بالأذهان من حالة الثبات التي كان عليها الصديق –رضى الله عنه – إلى حالة الأسى والحزن والحسرة التي أفعمت بها نفسه بموت النبي –صلى الله عليه وسلم – ولعل هذا ما رشح إلى التعبير عن الانتقال بالتحول خاصة في(ثم تحول من قبل رأسه).

وجاء التعبير في الرواية الثالثة ب(الإتيان)ليصف بدلالته على اليسر والسهولة حالة الإعياء وتقطع الأنفاس التي أمسى عليها الصديق نتيجة الأسى الذى أصابه بموت رسول الله –صلى الله عليه وسلم – .

وتلاؤما مع عناصر اللفت والتنبيه التي دعت إلى الإتيان بأداة العطف (ثم) في قولها:(ثم تحول من قبل رأسه – ثم أتاه من قبل رأسه) وتحقيقًا لها جاء الإشباع بالتقييد بـ(من) في قوله: (من قبل رأسه) مع إمكان التعبير بقوله: (ثم تحول إلى رأسه أو قبل رأسه)،وكأنها –رضى الله عنها – إضافة إلى ما سبق – ترشد إلى السلوك الذى ينبغي علينا أن نفعله عندما نهم بتقبيل الميت تعليما لأمة النبي – صلى الله عليه وسلم – هذا إلى جانب أن (من) بأصل دلالتها على ابتداء الغاية تحمل معانى القرب نتيجة شدة الشوق، وبدلالتها على البيان تسهم في بيان هذا الموقف، ورسم حدوده، وإظهار معالمه.

وجاء تعانق نداء الندبة مع الإضافة في (وانبياه – واخليلاه – واصفياه) ليصور شحنات الحزن، والأسى التي أفعم بها صدره – رضى الله عنه – والتي

أراد أن يفرغها في حركات المد التي اشتملت عليها هذه الصياغة، وهذا ما أرادت السيدة عائشة –رضى الله عنها – أن تقرره وتصف طوله بالعطف بـ (ثم) وتكرارها في (ثم حدر فمه)، وجاء التعبير بالفعل (حدر) ليصف سرعة النزول[1] بغاية تقبيل وجه النبي –صلى الله عليه وسلم – ولهذا عطفت التقبيل على الحدر بالفاء فقالت: (ثم حدر فمه فقبل جبهته)، وحتى تنبه – رضى الله عنها – على تكرار هذا الحدث جاءت بالعطف بـ (ثم) فقالت: (ثم رفع رأسه)،لاسيما وأن (ثم) بدلالتها على التراخي تشى بطول فترة وضع الصديق – رضى الله عنه – لفمه على وجه النبي –صلى الله عليه وسلم – ، وهو يقبله شوقاً وحباً وأسفاً، وهو ما جاء التعبير بـ (الوضع) خاصة، وتكراره في (فوضع فمه بين عينيه، ووضع يديه على ساعديه) ليصوره أتم تصوير، ولعل ملاءمة التقبيل هي التي دعت إلى إيثار الفم في هذا السياق ومن ثم عدلت عنه في الرفع إلى (الرأس) فقالت: (ثم رفع رأسه).

ووصف هذا المقام بغاية الدقة التي تجليها دقائق التعبير تكشف عن حالة الثبات التي كانت عليها الصديقة بنت الصديق –رضى الله عنهما – .

وفى تكرار الضمير(الهاء) في (ثم حدر فمه ..فقبل جبهته.. ثم رفع رأسه) في كل مرة من مرات هذا الحديث ما ينقل لنا الآهات والأنات التي تصحب البكاء، والتي تلوح بغاية الدقة من الإضافة في (وانبياه – واخليلاه – واصفياه)، ولعل هذا هو سر التعبير بـ(فمه) مرة، و(فاه)مرة أخرى في روايات هذا الحديث، ولا يبعد أن يكون هذا هو سر التنبيه بالعطف بـ (ثم) وتكراره في (ثم قال: وانبياه) في الرواية الثالثة.

(١) ينظر: لسان العرب ٤/ ١٧٢(حدر)

ورغبته – رضى الله عنه – في إفراغ ما به من حسرات وأحزان في هذا المقام هي التي دعته إلى ترداد قوله : (وانبياه – واخليلاه – واصفياه) بما اشتمل عليه من ترقٍ في الوصف يجلى قوة الحب، وشدة القرب، وإنما آثر التعبير بالنبوة وقدمها، لأنها تنبض بالرحمة التي تلائم مقام الحزن والأسى، إضافة إلى أنها بأصل دلالتها على الارتفاع[١]تتناغى مع مقام التعظيم والتنويه بشأن النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وعلو شأنه، وعظم ما أصابه –رضى الله عنه – فيه، ومن ثم أعقب نداء النبوة بنداء الخليل فقال :(واخليلاه)، وذلك لأن الخلة فيها دلالة على "الاختصاص بالتكريم ؛ ولهذا قيل إبراهيم خليل الله لاختصاص الله إياه بالرسالة، وفيها تكريم له"[٢] وهى "الصداقة والمحبة التي تخللت القلب، فصارت خلاله أي في باطنه "[٣].

وفى دلالة الخليل على(الفقير)[٤] ما يشى بشدة احتياج الصدِّيق – رضى الله عنه – إلى حبيبه – صلى الله عليه وسلم – ، وعدم قدرته على الاستغناء عنه، وفي هذا ما يجلى عظم الأسى، وعظم الحزن الذى أفعم به صدره– رضى الله عنه – وجاء الترقي من الوصف بـ(الخليل) إلى الوصف بـ (الصفي) ؛لأن الصفي هو " الخالص من كل شيء"[٥]

(١) ففى معجم مقاييس اللغة :" النون والباء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على ارتفاع الشيء عن غيره أو تنح عنه" ينظر معجم مقاييس اللغة٥/٣٠٧(نبو) .

(٢) الفروق اللغوية لأبى هلال ٢٢٣/١

(٣) لسان العرب ٢١٦/١١ (خلل) ، وينظر: فرائد اللغة في الفروق تأليف: هنريكوس لامنس اليسوعى – ص١٥٣ – ط : مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – ١٩٩٩م.

(٤) ينظر: الصحاح للجوهري ١٨٥/١(خلل)، ولسان العرب١١/٢١٦ (خلل)

(٥) لسان العرب ٤٦٣/١٤ (صفا) .

يقول ابن فارس:" الصاد والفاء والحرف المعتل أصل واحد يدل على خلوص من كل شوب، من ذلك الصفاء"(١)

واختلاف الرواية تقديما وتأخيرا بين قولها: (ثم تحول من قبل وجهه، فقال: وانبياه، ثم حدر فمه فقبل جبهته، ثم رفع رأسه فقال: واخليلاه، ثم حدر فمه فقبل جبهته، ثم رفع رأسه فقال: واصفياه، ثم حدر فمه فقبل جبهته ثم سجاه بالثوب ثم خرج)، وبين قولها :(ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ [يَا نَبِيَّ اللَّهِ] وَانَبِيَّاهْ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ حَدَرَ فَاهُ، وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاصَفِيَّاهْ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَحَدَرَ فَاهُ، وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، وَقَالَ: وَاخَلِيلاَهْ، مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ) كأنه جاء ليشى بأن السرعة التي كان عليها الصديق –رضى الله عنه – بين الحدر، والرفع مع اختلاط مشاعر الحزن، وتكرار الحدث، قد أفقدت السيدة عائشة –رضى الله عنها – تركيزها الذى اتسمت به في هذا المقام فلم تدر أسبق النداء الحدر أم أعقبه، وفى هذا إيحاء بأن هذه اللحظة كانت من أعظم لحظات الحزن التي أصابت الصديق، وابنته، ولعل هذا هو سر تقديم نداء الخليل مرة، والصفي مرة أخرى، وهو سر تنوع العطف بـ(الواو) مرة، وبـ(الفاء) أخرى، و(ثم) ثالثة، كما في قوله: (ثم رفع رأسه، ثم حدر فاه، وقبل جبهته ثم قال :واصفياه، ثم رفع رأسه، وحدر فاه، وقبل جبهته، وقال : واخليلاه).

والسيدة عائشة –رضى الله عنها – بمطل هذا الحدث بدلالات التراخي التي تفيدها (ثم) كأنها تلفت الأذهان والنفوس إلى حالة الثبات التي كان عليها – رضى الله عنه – حال خروجه وهو يحسم هذا الأمر الذى ادلهمت فيه الأمور، وزاغت فيه الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وكأنها تشى ببعد ما بين حالة

(١) معجم مقاييس اللغة ٢٢٧/٣(صفو) .

الحزن الشديدة التي كان عليها، وحالة الثبات التي أصبح فيها، ومن ثم كررت العطف بـ (ثم)، وصرحت بذكر الثوب مراعاة لمقام المطل.

وجاء العطف بـ(الفاء) في (فخرج إلى المسجد وعمر يخطب) في الرواية الثالثة مراعاة للسرعة الحقيقية التي كان عليها حال خروجه، لاسيما وأنه بتكرار ذكر الموت في هذه الرواية رسخ حالة الثبات التي أومأت إليها (ثم) في الرواية السابقة.

يؤيد هذا ما رواه البخاري فقال : {قَالَ الزهري وحدثني أَبُو سَلَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ . فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَّا بَعْدُ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا – صلى الله عليه وسلم – فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حي لاَ يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) إِلَى قَوْلِهِ (الشَّاكِرِينَ)[1] وَقَالَ وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلاَّ يَتْلُوهَا . فأخبرني سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تقلني رجلاي، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا علمت أَنَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – قَدْ مَاتَ}[2].

سيدنا أبو بكر – رضى الله عنه – بأمره لسيدنا عمر – رضى الله عنه – بقوله:(اجلس) الذى يكون عن نوم أو اضطجاع[3] كأنه يطلب منه الهدوء،

(١) سورة آل عمران الآية (١٤٤)

(٢) صحيح البخاري– كتاب المغازي – باب مرض النبي(صلى الله عليه وسلم) ووفاته – ٣٨١/٢ – حديث رقم – ٤٤٥٤.

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة٤٢١/١– والكليات ص ٧٢٨ .

معاملا له معاملة النائم لعدم إدراكه حقيقة ما أصاب الرسول(صلى الله عليه وسلم)، لاسيما وأنه سبيل من سبل إزالة الغضب الذى سيطر على سيدنا عمر – رضى الله عنه – بسبب ما أشيع عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) – في ظنه – فقد روى أبو داود في سننه من حديث أَبِى ذَرٍّ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قَالَ لَنَا « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلاَّ فَلْيَضْطَجِعْ »[1]، وفى هذا ما يجلى حالة القوة والثبات التي كان عليها الصديق –رضى الله عنه – رغم ما يعانيه من آلام، وحسرة، وأسى جلاها السياق السابق أكبر تجلية.

وقال – رضى الله عنه وأرضاه – : (يا عمر) دون (يا ابن الخطاب) لأن المقام ليس مقام تلطف وتودد وإنما هو مقام حسم، ولعل هذا ما يلوح من معانى القوة والإنكار التي ينشرها قوله : (اجلس)، وكأنه مع التماس العذر، كأنه ينكر عليه هذا القول وهو من هو قوةً، وتقوىً، وورعاً، ولعل هذا ما دعاه إلى الإتيان بأداة النداء (يا) الموضوعة للبعيد[2]، وكأنه يطلب منه الانتباه، ويهيؤه للاستماع ليقلع عما هو فيه، ولكنّ شدة الصدمة التي أصابته بالإنكار ما زالت تسيطر عليه فلم يرعوِ إلى نداء الصديق، ولم يستجب له، لعدم سماعه، وإدراكه لما يقال له لشدة ما هو فيه، وهذا ما يجليه التعبير عن الامتناع بـ (الإباء) خاصة بما فيه من قوة، مقرونًا بالإشباع المفاد من قول ابن عباس –رضى الله عنه – : (فأبى عمر أن يجلس) والذى يستحضر مشهد الشدة التي كان فيها –

(١) سنن أبى داود – للإمام الحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدي – ت/محمد محيى الدين عبد الحميد – كتاب الأدب – باب: ما يقال عند الغضب – ٢٤٩/٤ – ط: المكتبة العصرية – بيروت.

(٢) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك لابن هشام – ٩/٤.

رضى الله عنه – والتي أدركها الصحابة – رضوان الله عليهم – بسرعة انصرافهم عنه، وإقبالهم على سيدنا أبى بكر، وإنصاتهم، واستماعهم له، وهو ما يكشف عنه العطف بـ (الفاء) في (فأقبل الناس إليه)،وجاء التعبير بـ(الناس) عن الصحابة ؛ليصور كثرة الناس، وأن الخبر قد شاع في المدينة وما حولها، وجاء تقييد الإقبال بـ (إلى) ليرسم صورة الالتفاف حوله، والاقتراب منه، ويبرز حالة التحفز والتهيؤ لما يلقيه عليهم، ولهذا جاء النص على ترك سيدنا عمر في (وتركوا عمر)، وفيه إيحاء بحالة الانكسار التي كانوا عليها من شدة الحزن والأسى الذى أصابهم إزاء هذا الحدث العظيم ؛وذلك إذا ما قورن بالتقييد بـ(على).

وعناية من سيدنا عبد الله بن عباس –رضى الله عنه – ببيان موقف، وحالة الثبات التي كان عليها سيدنا أبو بكر، وهو يحسم هذا الموقف صرح بذكر سيدنا أبى بكر قائلًا: (فقال أبو بكر)،وجاء تعبير سيدنا أبى بكر بـ (أما) التفصيلية في (أما بعد) ليلفت أذهان الصحابة إلى ما يلقيه عليهم، ولعل هذا سر من أسرار ألفاظ الحمد والثناء التي صدر بها خطبته كما ورد في الروايات السابقة، ولعله قصد من وراء ذلك تذكيرهم بالله الذى هداهم إلى الإسلام، وامتن عليهم به، وإنما لم يصرح بها في هذه الرواية مراعاة لضيق المقام، ومسارعة إلى المطلوب، واكتفاء بدلالة (أما بعد) عليه، ولهذا يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: "تجد نفسك أنطق ما تكون إذا لم تنطق"[1].

(١) دلائل الإعجاز – تأليف الشيخ الإمام أبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي –قرأه وعلق عليه/أبو فهر محمود محمد شاكر – ص ١٤٦ – مطبعة دار المدني بالقاهرة – دار المدني بجده – الطبعة الثالثة – ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

وجاء التعبير بأسلوب الشرط مكررًا في (فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)؛ ليناغي عناصر اللفت والتنبيه التي دعته إلى الحمد والثناء والتفصيل، ومن أبرز ما يجلى حالات الثبات التي كان عليها سيدنا أبو بكر أسلوبه المتفرد الذى عالج به هذا الموقف، وهو التنويه بأن العبادة إنما هي لله – سبحانه وتعالى – ، وليست لسيدنا محمد –صلى الله عليه وسلم – ،ومن ثم عدل عن قوله : (رسول الله) إلى قوله: (محمداً) تنويهاً واهتماماً بإبراز عنصر البشرية الزائل الذى لا خلود له، وكأنه بهذا الأسلوب ينكر عليهم هذا الموقف، ويدعوهم إلى الثبات، ولهذا قدم الجار والمجرور(منكم) وكررها ؛ لأن أصل الحدث معقود عليهم ؛ولهذا أكد كلامه لهم بقوله: (فإن محمدًا قد مات) بـ (إنّ وقد واسمية الجملة) مراعاة لحالة الشك التي سيطرت على بعض الصحابة، وحالة الإنكار التي هيمنت على الآخرين، وهذا هو سر بناء جملة (ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) على سمت بناء جملة (فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات) مع أن الصحابة – رضوان الله عليه – لم يكونوا شاكين ولا منكرين أن الله حي لا يموت مبالغة في التأكيد، وتنزيلًا لهم منزلة المنكرين لهذه الحقيقة بموقفهم من وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – ، ولعل هذا ما دعاه إلى نفى الموت بـ (لا) دون (لن) التأبيدية[1]مع أنها تبدو أكثر ملاءمة للمقام اكتفاء بدلالات الاستمرار التي تفيد ها صيغة المضارع (يموت).

ومناغاة للتوكيد في قوله: (قد مات) بـ (قد)، وإسناد الفعل (مات) إلى الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – مرتين جمع – رضى الله عنه –

(١) ينظر: الأنموذج في النحو – تصنيف محمود بن عمر الزمخشري – اعتنى به/ سامى بن حمد المنصور – ص٣٢ –الطبعة الأولى – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

بين الحياة والموت بالتضاد ليؤكد المعنى ويقويه، مع إمكان التعبير بقوله :(فإن الله لا يموت أو لن يموت) ؛ولكنه آثر التعبير بالحياة في مقام الحزن، والألم، والقنوط هذا ليغرس فيهم الأمل حتى ينهضوا من الكبوة، والمحنة التي أصابتهم، وتأكيداً لكلامه، وتدليلاً على صدقه، وإبرازاً لثباته أعقب قوله هذا بالآية القرآنية التي تؤكد هذا فقال : (قال الله) ؛ وإنما آثر التعبير بصيغة الماضي (قال الله) ليؤكد أن هذا أمر قد قضاه الله على نبيه منذ خلق الله الخلق في اللوح المحفوظ، فهو –رضى الله عنه – لم يكن بصدد استحضار هذه الآية حتى يعبر بصيغة المضارع، وإنما كان بصدد تأكيدها، وتقريرها، والتذكير بها .

وتلاؤما مع ضيق المقام نتيجة شدة الحزن لم يشر السياق إلى أنه –رضى الله عنه – قرن ذكر لفظ الجلالة بجملة الاعتراض الدعائية، فلم يقل :قال الله – سبحانه وتعالى – أو – عز وجل – ؛ولعله من تصرف الرواة.

والمولى –سبحانه وتعالى – بإدراكه لعظم هذه المصيبة على نفوس أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – حسم هذا الموقف، وراعى ذلك بإيثاره لأسلوب القصر[1] الذى طريقه النفي والاستثناء فقال: (وما محمد إلا رسول)، وذلك بقصر النبي (صلى الله عليه وسلم) على صفة الرسالة لا الخلود قصر موصوف على صفة قصر إفراد تنزيلا لهم لشدة حزنهم عندما أشيع ذلك في

(١) القصر هو تخصيص شيء بشيء بطريق معهود . ينظر : المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم –تأليف العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى –تحقيق: عبد الحميد هنداوى –ص٣٨١ – ط:دار الكتب العلمية –بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

غزوة أحد منزلة من يظن الجمع بين هاتين الصفتين[١]، ومن القرائن التي جاءت لتؤكد أن الغاية هي قصر سيدنا محمد على صفة الرسالة لا الخلود اقتران هذا الأسلوب الذى يؤتى به فيما ينكر ويشك فيه[٢] بجملة (قد خلت من قبله الرسل) المؤكدة بـ (قد) التحقيقية التي تزيل أي إنكار أو شك، وعبر بـ (خلت) دون (ماتت) للدلالة على ترك مكانها خاليًا، طالبًا منهم أن ينظروا إلى أحوال الرسل السابقين الذين أخبر القرآن الكريم عنهم ما حالهم، وما شأنهم ؛وكأنه – سبحانه وتعالى– قد قصد من وراء ذلك أن يضفى على هذا الأمر طابعاً حسياً يسهم في تقرير هذا الأمر العظيم، وتحقيقه، وجاء بـ (من) في (من قبله) مبالغة في بسط الكلام لزيادة التأكيد، إلى جانب الدلالة على أن هذا أمر كائن من بداية إرسال الرسل، وخلق الخلق، وهذه هي دلالات الابتداء التي تأتى (من) لإفادتها ؛ولعل هذا ما أراد السياق تقريره من وراء تقديم الجار والمجرور على الفاعل (الرسل)، مقرونًا بما يحمله من تشويق يقرر هذا الأمر في النفوس حتى تسكن، وتطمئن، وهو ما دعاه إلى التعبير بأسلوب الاستفهام التقريري الذى يلفت الانتباه ويجذب الأذهان ؛وكأنه يريد أن يستفهم منهم عن حالهم بقوله: (أخبروني ما شأنكم وحالكم إن مات محمد أو قتل ؟)،و (الفاء) العاطفة في (أفإين) تحمل بين طياتها كثيرًا من المعاني التي تعجز الألسنة عن تصويرها ؛ولعل (الياء) الزائدة زيادة معنى في (أفإين) قد جاءت لتومئ بها، وتشير إليها.

---

(١) ينظر: تفسير أبى السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – ٩٢/٢ – ط:دار إحياء التراث العربي – بيروت – دون.

(٢) ينظر الإيضاح في علوم البلاغة – المعاني والبيان والبديع – تأليف :الخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد – وضع حواشيه/إبراهيم شمس الدين – ص ١٠٢،١٠٣ –ط : دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان – الطبعة الثانية – ٢٠١٠م .

وقد ذهب الشيخ الطاهر بن عاشور ورجَّح أن القصر في هذه الآية الكريمة يمكن أن يحمل على القلب، وذلك بأن يكون المقصود منه قصر النبي – صلى الله عليه وسلم – على صفة الرسالة المقرونة بنفي الخلود تنزيلًا لهم منزلة من يعتقدون انتفاء خلو وموت الرسل من قبله – صلى الله عليه وسلم – ومن ثم قلب عليهم الحكم تعريضًا بهم لرغبتهم وقتئذٍ فى الركون إلى الكفار، ومحاولتهم الانضمام إليهم كما ورد في سبب نزول الآية، مع علمهم أن الرسل قبلهم قد خلوا، وبقيت رسالاتهم يتمسك بها من يتبعون دعوتهم، بل ويستميتون من أجلها، وبهذا يكون قوله تعالى :{ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} من بنية الجملة التركيبية لأسلوب القصر، وذلك بكونها صفة للرسل، وليست استئنافًا، لأن الحمل على الاستئناف المؤدى إلى تحقيق معنى قصر الإفراد يذهب غايات المعاني التي تقصد إلى الجمع بين التعريض، والتصريح إنكارًا عليهم، وعتابًا لهم يشى به اقتران الاستفهام بالفاء السببية وهو ما ألمح إليه الزمخشري بقوله:"{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل } فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه، لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه { أَفإِيْن مَّاتَ } الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أنّ خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم، لا للانقلاب عنه"[1].

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف: أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي – ٢٢١/١ – ط:دار المعرفة – بيروت –لبنان .

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور:" وقَصر محمداً على وصف الرسالة قَصْرَ موصوف على الصفة . قصراً إضافياً، لردّ ما يخالف ذلك ردّ إنكار، سواء كان قصر قلب أو قصر إفراد، والظاهر أنّ جملة { قد خلت من قبله الرسل } صفة «لرسول»، فتكون هي محطّ القصر: أي ما هو إلاّ رسول موصوف بخلوّ الرسل قبله أي انقراضهم . وهذا الكلام مسوق لردّ اعتقاد من يعتقد انتفاء خلوّ الرسلِ مِن قبله، وهذا الاعتقاد وإن لم يكن حاصلاً لأحد من المخاطبين، إلاّ أنَّهم لمّا صدر عنهم ما من شأنه أن يكون أثراً لهذا الاعتقاد، وهو عزمهم على ترك نصرة الدّين والاستسلام للعدوّ كانوا أحرياء بأن ينزلوا منزلة من يعتقد انتفاء خلوّ الرسل مِن قبله، حيث يجدون أتباعهم ثابتين على مللهم حتّى الآن فكان حال المخاطبين حال من يتوهّم التلازم بين بقاء الملّة وبقاء رسولها، فيستدلّ بدوام الملّة على دوام رسولها، فإذا هلك رسول ملّة ظنّوا انتهاء شرعه وإبطال اتّباعه، فالقصر على هذا الوجه قصر قلب، وهو قلب اعتقادهم لوازم ضدّ الصّفة المقصور عليها، وهي خلوّ الرسل قبله، وتلك اللوازم هي الوهَن والتردّد في الاستمرار على نشر دعوة الإسلام، وبهذا يشعر كلام صاحب «الكشّاف» ."[1]" وهذا الحكم يؤكِّد ما اقتضته جملة القصر، من التعريض بالإنكار عليهم في اعتقادهم خلاف مضمون جملة القصر، فقد حصل الإنكار عليهم مرتين : إحداهما بالتَّعريض المستفاد، من جملة القصر، والأخرى بالتَّصريح الواقع في هاته الجملة ."[2]

(١) تفسير التحرير والتنوير – تأليف: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور – ١١٠/٤– ط: الدار التونسية والدار الجماهيرية –دون

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١١٢/٤

وعناية منه –سبحانه وتعالى – بهذا الأمر الخطير جمع بين الموت والقتل على سبيل الترقي فقال:(أفإين مات أو قتل) ؛وذلك لأن غاية السياق في هذا المقام هي تقرير حدوث الفناء، وخشية الفتنة نتيجة الاستعظام، ومن ثم عرض خشية الفتنة بموت النبي –صلى الله عليه وسلم – في إطار تصويري تمثيلي يشبه حالة من يرتد عن الإسلام افتتاناً بموت النبي –صلى الله عليه وسلم – بحالة من يسير على ظهره بجامع الهيئة الحاصلة من عدم الاهتداء في كل وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية، وعبر بـ (الانقلاب) لارتباطه بالمخالفة، فهو بأصل معناه يدل على السير في طريق مخالف للآتي منه[1]،وجعل الانقلاب على الأعقاب دون الظهور لقربها من الأذى مجاز مرسل علاقته الجزئية مبالغة في الذم.

واكتفى –سبحانه وتعالى – بقوله : (انقلبتم على أعقابكم) عن قوله:(انقلبتم على أعقابكم أم لا) لأن الخشية إنما هي من الافتتان بموت النبي –صلى الله عليه وسلم – ، ومن ثم كرر ذكر الصورة بأسلوب الشرط التحذيري فقال : (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا)؛وذلك حتى يقرع بها نفوس السامعين فتتذكرها ولا تنساها بعظم المصيبة، ومن ثم رتب عليها نفى الضرر ولو يسيراً على جهة التأبيد المفاد من (لن).

ورغم الاحتفال الذى يلوح من تكرار ذكر الصورة، وتنوع وسائل التنبيه بالاستفهام مرة، وبالشرط مرة، مع إيثار الانقلاب بدلالته على المخالفة مقرونًا بـ (على) بدلالتها على الاستعلاء إلا أن الصحابة –رضوان الله عليهم –لم يفطنوا إلى هذه الآية التي تنعى رسول الله سوى سيدنا أبى بكر الذى ألهمه الله تذكر هذه الآية، وكأن إرادة الله –سبحانه وتعالى –قد حسمت بهذا الأمر استحقاق

(١) ينظر الفروق اللغوية لأبى هلال ص٢٥٠

سيدنا أبى بكر بثباته ليكون خليفة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – في هذا الموقف العصيب وأدًا للفتنة، ولعل هذا سر تذييل الآية الكريمة بقوله –تعالى – (وسيجزى الله الشاكرين) لنجاتهم من التفرق، والاختلاف في هذا المقام العظيم، وعبر بـ (السين) للدلالة على قرب هذا الأمر .

وآثر الزهري – نضر الله وجهه – التعبير بقوله : (وقال) بعد ذكر الآية الكريمة ؛لينبه ويلفت الأذهان إلى أحوال الصحابة بعد سماعهم لهذه الآية الكريمة، وكأنه يشير إلى أن حالة الثبات التي كان عليها الصديق الذى اصطفاه الرسول ليكون خليفته في الصلاة، والتي جعلته يتذكر قول الله –عز وجل – في هذا المقام لم يتسم بها إلا هو – رضى الله عنه – ولعل هذا ما دعا سيدنا عبد الله بن عباس –رضى الله عنه – إلى تأكيد قوله :بـ (أسلوب القسم – واللام – و أنَّ – وكأنَّ) في قوله :(والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية)، يشعر بهذا إسناد الفعل (أنزل) إلى لفظ الجلالة مرتين، والتأكيد المفاد من أسلوب القصر الذى طريقه (النفي والاستثناء) في (فما أعلم بشرًا من الناس إلا يتلوها).

ومراعاة لأحوال الصحابة أيضاء جاء التأكيد في قوله –تعالى – :(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)[1] في مخاطبة النبي –صلى الله عليه وسلم – مع أنه لم يكن شاكاً أو منكراً، كما ورد في روايات هذا الحديث.

وعبر –رضى الله عنه – بـ (الناس) دون (الصحابة أو الحاضرين) تأكيدًا لدلالات العموم آنفة الذكر، ولعل هذا هو سر الاحتفال بتكرار ذكر الناس في

(١) سورة الزمر الآية ٣٠

قوله :(والله لكأن الناس...فتلقاها منه الناس...فما أسمع بشرا من الناس) يشعر بهذا التأكيد بقوله :(كلهم).

وتأكيد حالة الثبات التي كان عليها الصديق –رضى الله عنه – هي التي دعت سيدنا عبد الله بن عباس –رضى الله عنهما – إلى التصريح بذكر سيدنا أبى بكر، والنص عليه بوضع الظاهر موضع المضمر في (حتى تلاها أبو بكر) مع أن قوله : (حتى تلاها) يحقق الغاية، ويصبو إلى الهدف، لكونه مفهوماً ضمناً من السياق، وهذا يعد من أبرز ما يؤيد أن غايات المعنى في غضون هذا السياق إنما تهدف إلى وصف وتصوير حالة الثبات التي كان عليها الصديق – رضى الله عنه – يؤيد هذا إعادة الضمير عليه وتقديمه في (فتلقاها منه الناس)، مقرونا بـ (حتى) بما تتسم به من مد وطول يحقق لفتاً وتنبيهاً.

وجاء التعبير بـ (التلقي) في (فتلقاها) ليشى بحالات الترقب، والتهيؤ، والتحفز التي كان عليها الصحابة – رضوان الله عليه – أثناء كلام سيدنا أبى بكر إجلالاً له وتقديراً لمكانته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتأكيداً ودلالةً على عظم ما نزل بهم وذلك كما ورد في قول الشماخ:

إذَا مَا رَايةٌ رُفِعَتْ لمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرابةُ باليمينِ[1]

ونفى سيدنا عبد الله بن عباس –رضى الله عنهما – (العلم) ولم ينف المعرفة فقال :(والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية)لأن العلم أعم

(١) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني –تـ: صلاح الدين الهادي –ص ٣٣٦ – ط: دار المعارف – مصر – ١٩٦٨م

من المعرفة[١]،فالمعرفة تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه[٢]،وفى هذا دلالة على أن الصحابة –رضوان الله عليهم –لشدة ما هم فيه من هم، وغم، وحزن كأنهم لم يسمعوا بهذه الآية من قبل، بل ولم يدركوا معناها، ولا ما اشتملت عليه، وهو ما أراد السياق الدلالة عليه بمعاني الشك التي تحملها (كأن)، وهذا أدل على شدة ما هم فيه من هم، وغم صرفهم عنها، رغم معرفتهم بها، وحفظهم لها، وهو ما أراد أن يومئ إليه السياق بقوله : (فتلقاها منه الناس فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها)،ولعل هذا ما دعاه إلى استحضار هذا المشهد بصيغة المضارعة(أسمع – يتلوها) مع أن التعبير بالماضي أدل وأكثر ملائمة للتأكيد الذى ينبض به السياق، وكأنه –رضى الله عنه – في هذا الجزء من السياق يريد أن يضع علامة تشير إلى أن الصحابة –رضوان الله عليهم – يحفظون هذه الآية، ويدركونها جيداً، ولكنه هول الصدمة، وعظم المصيبة الذى أفقدهم تركيزهم، وجعلهم كأنهم لم يعلموا بهذه الآية من قبل ؛ولهذا صاغ سيدنا عبد الله بن عباس–رضى الله عنهما – هذه العبارة بأسلوب القصر الذى طريقه (النفي والاستثناء) مع أنّ أحداً لم يكن شاكاً ولا منكراً لكلامه، ولكنه محض التوكيد، والتقرير، وإبراز المعنى، وهذا هو سر التعبير بقوله : (بشراً) دون (أحداً) ؛ لأنها تأتى لتدل على الظهور، وبذا تتناغم مع استحضار المشهد بصيغة المضارعة، ومع الإشباع بقوله: (بشراً من الناس)مع أن البشر لا يكون إلا من الناس، ولكنه إظهار هذا المشهد، وإبراز هذه الحالة.

(١) ينظر: الفروق اللغوية لأبى هلال ص ٦٢

(٢) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين – تأليف :محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله بن قيم الجوزية – ت: محمد حامد الفقي – ٣٣٦/٣ – ط : دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣م

يقول أبو هلال العسكري في الفرق بين البشر والناس :" الفرق بين الناس والبشر أن قولنا البشر يقتضى حسن الهيئة، وذلك أنه مشتق من البشارة، وهى حسن الهيئة، يقال :رجل بشير، وامرأة بشيرة إذا كان حسن الهيئة، فسمى الناس بشراً ؛لأنهم أحسن الحيوان هيئة، ويجوز أن يقال :إن قولنا بشر يقتضى الظهور، وسموا بشراً لظهور شأنهم، ومنه قيل لظاهر الجلد بشرة"(١).

ولما كانت هذه الآية القرآنية سبباً رئيساً في تحول الناس من حالة الشك والإنكار إلى حالة التصديق والإيقان عبر – رضى الله عنه وأرضاه – بقوله: (هذه الآية) دلالة على كمالها في تحقيق الغاية في هذا الموقف الذى تصدعت من هوله الجبال الرواسخ.

وعبر سيدنا عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – بـ (التلاوة) فقال : (حتى تلاها أبو بكر فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها)، وذلك لأن التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعدا، والقراءة تكون للكلمة الواحدة، يقال : قرأ فلان اسمه، ولا يقال تلا اسمه، وذلك لأن أصل التلاوة اتباع الشيء الشيء يقال : تلاه إذا تبعه فتكون التلاوة في الكلمات يتبع بعضها بعضاً، إضافة إلى أن التالي يكون عاقلاً لما يقرأ وهذا بخلاف القراءة، فإنه لا يشترط فيها ذلك(٢)، ومع هذا فإني أستشعر منها بهمس حروفها ورقتها مقارنة بالقراءة ما يناغى حالات الحزن والأسى المسيطرة على الصحابة –رضوان الله عليهم – آنذاك لاسيما سيدنا أبو بكر الذى تمالك نفسه، وحسم أمره رغم تفطر قلبه – رضى الله عنه وأرضاه – .

(١) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري ص٢٢٨

(٢) ينظر: الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري ص ٤٨

المبحث الثاني

الحالة النفسية لسيدنا عمر بن الخطاب عند وفاة خير البرية

(صلى الله عليه وسلم)

سيدنا عمر بن الخطاب العدوى القرشي –رضى الله عنه – كان إسلامه فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمةً، اصطفاه ربه ليكون في العدل فاروقاً، ونزل القرآن في مواطن لرأيه مؤيداً ومجيباً، أصيب بصدمة شديدة عند وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فوقف في الناس قائلا :إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لن يموت حتى يزيل من النفوس نفاقاً، وحتى يغرس فيها هدىً ورشادًا.

فقد روى الإمام أحمد فى مسنده فقال :"حَدَّثَنَا بَهْزٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، أَخْبَرَنِى أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِىُّ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ بَابَنُوسَ، قَالَ: ذَهَبْتُ أَنَا وَصَاحِبٌ لِى إِلَى عَائِشَةَ فَاسْتَأْذَنَّا عَلَيْهَا فَأَلْقَتْ لَنَا وَسَادَةً وَجَذَبَتْ إِلَيْهَا الْحِجَابَ فَسَأَلْهَا عن مباشرة الحَائِضْ، ثُمَّ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا مَرَّ بِبَابِى مِمَّا يُلْقِى الْكَلِمَةَ يَنْفَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ مَرَّ أَيْضًا فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، قُلْتُ: يَا جَارِيَةُ ضَعِى لِى وِسَادَةً عَلَى الْبَابِ وَعَصَبْتُ رَأْسِى فَمَرَّ بِى فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ مَا شَأْنُكِ؟ قُلْتُ: أَشْتَكِى رَأْسِى، قَالَ: وأَنَا وَارَأْسَاهْ فَذَهَبَ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ يَسِيرًا حَتَّى جِيءَ بِهِ مَحْمُولاً فِى كِسَاءٍ، وَبَعَثَ إِلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: إِنِّى قَدِ اشْتَكَيْتُ وَإِنِّى لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدُورَ بَيْنَكُنَّ فَأْذَنَّ لِى فَلأَكُنْ عِنْدَ عَائِشَةَ، [أَوْ صَفِيَّةَ] فَأْذَنَّ له فكنت أوصبه وَلَمْ أكن أوصب أَحَدًا قَبْلَهُ، فَبَيْنَمَا رَأْسُهُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى مَنْكِبِىَّ إِذْ مَالَ رَأْسُهُ نَحْوَ رَأْسِى فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُ مِنْ رَأْسِى

حَاجَةً فَخَرَجَتْ مِنْ فِيهِ نُطْفَةٌ بَارِدَةٌ فَوَقَعَتْ عَلَى ثُغْرَةِ نَحْرِى فَاقْشَعَرَّ لَهَا جِلْدِى فَظَنَنْتُ أَنَّهُ غُشِىَ عَلَيْهِ، فَسَجَّيْتُهُ ثَوْبًا، فَجَاءَ عُمَرُ، وَالْمُغِيرَةُ، فَاسْتَأْذَنَا فَأَذِنْتُ لَهُمَا، وَجَذَبْتُ الْحِجَابَ، فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَا غَشْيَاهْ مَا أَشَدُّ غَشْىَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قَامَا فَلَمَّا دَنَوَا مِنَ الْبَابِ، قَالَ الْمُغِيرَةُ: يَا عُمَرُ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: كَذَبْتَ بَلْ أَنْتَ رَجُلٌ تَحُوشُكَ فِتْنَةٌ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لاَ يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِىَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ جَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَرَفَعْ الْحِجَابَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ [يَا نَبِىَّ اللَّهِ] وَانَبِيَّاهْ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ حَدَرَ فَاهُ، وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاصَفِيَّاهْ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَحَدَرَ فَاهُ، وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، وَقَالَ: وَاخَلِيلاَهْ، مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَعُمَرُ يَخْطُبُ النَّاسَ [وَيَتَكَلَّمُ] وَيَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لاَ يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِىَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}، حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ. {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} حَتَّى فَرَغَ مِنَ الآيَةِ. فَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ حي وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، فَقَالَ عُمَرُ: وَإِنَّهَا لفي كِتَابِ اللَّهِ،

مَا شَعَرْتُ أَنَّهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا أَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ذُو شَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ فَبَايِعُوهُ فَبَايَعُوهُ"[1]

وروى البخاري في صحيحه فقال:{قَالَ الزهري وحدثني أَبُو سَلَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ . فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَّا بَعْدُ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا – صلى الله عليه وسلم – فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حي لاَ يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) إِلَى قَوْلِهِ (الشَّاكِرِينَ) وَقَالَ وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلاَّ يَتْلُوهَا . فأخبرني سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تقلني رجلاي، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا علمت أَنَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – قَدْ مَاتَ}[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل تأليف أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني – تحقيق: شعيب الأرنؤوط ،وعادل مرشد – مسند الصديقة عائشة بنت الصديق – رضى الله عنها – ٣٤/٤٣–الحديث رقم٢٥٨٤١–ط: مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، وأخرجه ابن عساكر وحكم عليه بأنه حديث حسن ينظر: الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين رحمة الله عليهن أجمعين تأليف: أبى منصور عبد الرحمن بن محمد بن هبة الله بن عساكر –تحقيق: محمد مطيع الحافظ وآخر –ص ٨٢ – ط:دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولى – ١٤٠٧هـ

(٢) صحيح البخاري – كتاب المغازي – باب مرض النبي(صلى الله عليه وسلم) ووفاته – ٣٨١/٢ – حديث رقم ٤٤٥٤.

بعد أن وصفت السيدة عائشة –رضى الله عنها – حال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – عند وفاته في الرواية الأولى، أشارت إلى أنها لم تكن تعرف ذلك، وأنها ظنت أنه قد غشى عليه، فسجته ثوباً، وأنه في هذه الأثناء إذا بسيدنا عمر، وسيدنا المغيرة يأتيان ليطمئنا على رسول الله –صلى الله عليه وسلم – ، ويتلمسا حاله، وهو ما أرادت أن تشير إليه –رضى الله عنها – بـ (الفاء) خاصة في (فجاء عمر، والمغيرة)،ودلالة على أن هذا الإتيان قد كان مصحوباً بمشقة، ومعاناة الحزن على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اصطفت التعبير بـ (المجيء) لاسيما وأن فيه قوة تنبه إلى أن أمرًا هامًا قد ترتب على هذا المجيء، يشعر بهذا التعبير عن (الإرخاء) بـ (الجذب) بما فيه من قوة في (وجذبت الحجاب) مقروناً السرعة المفادة من العطف بـ (الفاء) في : (فجاء عمر والمغيرة، فاستأذنا، فأذنت لهما، وجذبت الحجاب، فنظر عمر إليه، فقال)، وإنما لم تقل : (فجاء عمر بن الخطاب، والمغيرة بن أبى سلمة) مع أنه أقدر على هذا التنبيه تلاؤمًا مع ضيق المقام.

وتنبيهاً على تمسك الصحابة – رضوان الله عليهم – بآداب الزيارة حتى في أحلك الظروف، وأشدها آثرت –رضى الله عنها – ذكر الاستئذان في هذا المقام التعليمي –رغم ضيق المقام، وعطفت عليه جذب الحجاب تأكيداً لحالة الثبات النفسي التي كانت عليه الصديقة بنت الصديق –رضى الله عنها – في هذا المقام المشحون بالأحزان، وعطفت جذب الحجاب على ما قبله بـ (الواو) لتشير إلى أن هذا كان مصاحباً للإذن بالدخول، إذ هي لمطلق الجمع، ولم تنص –رضى الله عنها – على ذكر الدخول، واكتفت بالإذن لهما بالدخول مراعاة لضيق المقام، ومسارعة إلى المقصود.

وعبرت –رضى الله عنها بقولها : (فنظر عمر إليه) ولم تقل: (فنظر إليه عمر)؛ لأنها في هذا المقام، وفى هذا الجزء من السياق تقصد إلى تصوير سيدنا عمر، وبيان حالته عند رؤيته لرسول الله –صلى الله عليه وسلم – ، وقيدت النظر بـ (إلى) ولم تقيده بـ (في) دلالة على أن هذا النظر لم يكن فيه تدقيق، وتأمل كما كان من سيدنا أبى بكر الصديق –رضى الله عنه – وكأنها تشير بإيحاءات البعد التي تفيد ها (إلى) إلى أن هذا لم يكن عن قرب، وكأنها تريد أن تعتذر عما بدا من سيدنا عمر من موقف في هذا المقام يؤيد هذا العطف بـ (الفاء) في (فنظر عمر إليه فقال) .

وجاء نداء الندبة في(واغشياه) ليصور حالة الوله، وحالة الحسرة، والتحزن التي أفعم بها صدره – رضى الله عنه – والتي أراد أن يفرغها في حركات المد التي اشتمل عليها هذا الأسلوب الذى تنطق حروفه بالآهات، وتندب بالويلات، وأضاف إليه أسلوب التعجب (ما أشد) بما اشتمل عليه من مد يساعد على نشر ما في النفوس من آلام، وليبين أن التعجب من شدة الغشي إنما ينبع من كونه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مشيراً إلى أن الأحرى بمقام النبي أن يخفف عنه الألم ولكن حكمة الله التي اقتضت أن يضاعف لهم الألم ليضاعف لهم الأجر ؛ولهذا أضاف كلمة (رسول)إلى لفظ الجلالة فقال: (رسول الله)، وكأنه بهذه العبارة يريد أن يخفف ما يموج بداخله من أحزان بسبب ما يرى من عظم ما أصاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم – والذى يوحى به تكرار ذكر الغشي.

والعطف بـ(ثم) في (ثم قاما) يشير إلى أنهما مكثا عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم – فترة، وجاء التعبير بـ (القيام) ليلائم حالة التحفز للذهاب والانصراف، وهذا بخلاف (الوقوف) فإنه يشى بالجمود ؛وكأنها – رضى الله

عنها – بدلالات التحفز والتهيؤ هذه تريد أن تهيأ النفوس إلى ما أعقب هذا القيام، وهذا الانصراف، وهو ما دعاها إلى التعبير بأسلوب الشرط (لما) بما يشتمل عليه من تشويق، وتهيئة مقروناً بـ (الفاء) الفصيحة التي تطوى وراءها أحداث الانصراف، إذ أصل التعبير (ثم قاما وانصرفا، فلما دنوا من الباب)، وإنما لم تذكر الانصراف مراعاة لضيق المقام، لاسيما لما لم يتعلق به غرض الكلام، وكأنها تسارع إلى المقصود من بيان مقولة سيدنا المغيرة – رضى الله عنه – .

وعبرت – رضى الله عنها – عن الاقتراب بـ (الدنو) ؛ لأن فيه رقة تلائم مقام الحزن، ولأنه بقلة حروفه مقارنة بالاقتراب يلائم ضيق المقام، ودلالة على أن هذا الحوار قد دار عند اقترابهما من الباب جاء التقييد بـ (من) الابتدائية ؛وكأنها تمهد إلى البيان الذى أعقب الدنو هذا متمثلاً في كلام سيدنا المغيرة.

ولما أدرك سيدنا المغيرة –رضى الله عنه – عدم معرفة سيدنا عمر –رضى الله عنه – لوفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – أراد أن ينبهه إلى ذلك فجاء بالنداء الموضوع للبعيد فقال : (يا عمر) ؛وكأنه بما اشتملت عليه أداة النداء (يا) من مد يريد أن يفرغ فيها –مع التنبيه والتهيئة –ما بداخله من أحزان، وفيه دلالة على عظم ما يخبر به وخطورته، وفى قوله : (مات رسول الله – صلى الله عليه وسلم –)، بإضافة الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى لفظ الجلالة ما يرمز إلى أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – ما هو إلا رسول من عند الله يصيبه ما أصاب الأنبياء قبله، ولعل درجة الثبات النفسي التي كان عليها المغيرة –رضى الله عنه – في هذا المقام هي التي دعته إلى التصريح بهذا حتى قبل مجيء سيدنا أبى بكر، وهى التي ألجأته إلى عدم الاحتفال بتأكيد كلامه كما حدث من سيدنا أبى بكر الذى أراد أن يرد ويدفع الإنكار الذى يجول ويصول بداخله من شدة الحزن، كما ورد في روايات هذا الحديث.

وعندما أرادت السيدة عائشة – رضى الله عنها – أن تصور حالة الاندفاع التي أصابت سيدنا عمر إثر الصدمة الشديدة التي قرعت سمعه بكلام سيدنا المغيرة لم تعد ذكر اسمه، ولم تعطف قوله على ما سبقه بـ (الفاء) كما هو بناء كلامها، ولكنها قالت: (قال كذبت) بصيغة الماضي مبالغة في التكذيب له، وقطعاً لكل سبل الحوار والمجادلة له، ولم يكتف بذلك بل أضرب بقوله : (بل أنت رجل تحوشك فتنة)مبالغة في الترقي في الذم، والتبكيت له، والإنكار عليه نتيجة شدة الموقف عليه، وهذا ما لا يحققه التعبير بقوله : (قال كذبت أنت رجل تحوشك فتنة) لأن التعبير بجملتين أقوى في الدلالة على الإنكار من التعبير بجملة واحدة، وعبر بقوله:(رجل) دلالة على كمال الفتنة التي اجتمعت في أحشائه، ولهذا نكرها، وقرنها بقوله: (تحوشك) دلالة على عظمتها.

يقول ابن منظور: "ويقال الحُواشةُ من الأَمر ما فيه فَظِيعةٌ يقال لا تَغْش الحُواشةَ قال الشاعر غَشِيتَ حُواشةً وجَهِلْتَ حَقّاً وآثَرْتَ الغِوايةَ غيرَ راضِ"[1]

ومراعاة لحالة نفسه المنكرة لهذا الأمر أكد كلامه بـ (إنّ) فقال: (إنّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم – لا يموت، ونفى الموت بـ (لا) دون (لن) التأبيدية يشعر بأن سيدنا عمر لم يكن يعتقد أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم – لن يموت أبداً كما يوهم بذلك موقفه، وإنما كان يعلم أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سيموت، وأنّ هذا لن يكون قبل أن يفنى الله المنافقين، ولعل هذا ما يكمن وراء إضافة الرسول –صلى الله عليه وسلم – إلى لفظ الجلالة إيماناً منه بأنه –صلى الله عليه وسلم – في حقيقته ما هو إلا رسول من رسل الله يصيبه ما أصابهم، يؤيد هذا إسناد الفعل (يفنى)إلى المولى –سبحانه وتعالى – وإنما

(١) لسان العرب ٦/٢٩٠(حوش)

خص المنافقين دون الكفار ؛لظنه أن سيدنا المغيرة منهم، لاسيما وأن المنافقين قد أظهروا استبشاراً عند مرض النبي –صلى الله عليه وسلم – .

وفى (حتى) الغائية بما فيها من مد معنى طول الأمد الذى كان يبغيه سيدنا عمر –رضى الله عنه – ، وعبر بالفعل (يفنى) دلالة على أن موت النبي – صلى الله عليه وسلم – لن يكون حتى يهلك الله جملة المنافقين[1]، وآثره على (يقطع أو يهلك)، وذلك بأن يكون التعبير (حتى يهلك الله المنافقين أو حتى يقطع الله دابر المنافقين) إيماء إلى سهولة إهلاكهم، لأن الإهلاك يكون عاماً، والقطع فيه نوع عنف يشى بقوتهم، إلى جانب أن (الإفناء) أكثر ملاءمة لذكر الموت، وآثر ذكر الموت في (لا يموت) على التوفى الذى يسند إلى الله – عز وجل اكتفاءً بإسناد الفعل (يفنى)إلى الله.

والسيدة عائشة – رضى الله عنها – بعد أن بينت كيف حسم سيدنا أبوبكر خبر وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم – بوقوفه في الناس وتذكيرهم بقوله – تعالى – : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) رجعت لتبين لنا حال الفاروق عمر –رضى الله عنه – بعد سماعه لهذه الآية القرآنية التي تنعى خير البرية – صلى الله عليه وسلم – فقد عطفت قول سيدنا عمر على ما قبله بـ (الفاء)العاطفة لمجموع كلام على مجموع كلام لتبين لنا بدلالات السرعة التي تفيدها (الفاء) أن سيدنا عمر – رضى الله عنه – بمجرد سماعه لهذه الآية القرآنية رجع عن إنكاره مستفهماً متسائلاً (وإنها لفي كتاب الله)فسقوط همزة الاستفهام وحذفها كأنه حدث نتيجة شدة الصدمة التي أصابته –رضى الله عنه – بعد سماع هذه الآية التي تنعى خير البرية – صلى الله عليه وسلم – لاسيما وأنه يتلاءم مع العقر والإهواء على الأرض الذى نصت عليه رواية سيدنا عبد

(١) ينظر: الفروق اللغوية لأبى هلال ص٨٤

الله بن عباس –رضى الله عنهما – كما سيأتي، أما العطف بـ (الواو) فقد جاء في هذا السياق ليتعانق مع عناصر التوكيد في نزع الإنكار الذى يخالج صدر الفاروق –رضى الله عنه – والتي تمثلت في التوكيد بـ(إنَّ)، وضمير القصة والشأن، واللام في (لفي)، وعبر بـ (الكتاب) دون (القرآن) ؛ لأن في الكتاب دلالة أقوى على الثبوت، والاستقرار الذى تفيده دلالات الظرفية المنبعثة من (في)، والتي تؤكد وجود واستقرار هذه الآية في كتاب الله، وإضافة الكتاب إلى لفظ الجلالة كأنها تدل على أن هذا هو حكم الله، وقضاؤه، وجاء الاعتذار بنفي (الشعور) دون (العلم) في (ما شعرت) لأنها آكد في نفى ورود هذه الآية على خاطره أو معرفته بها، لأن "الشعور علم يوصل إليه من وجه دقيق"[(١)]؛ لذا فهو أبلغ في تأكيد هول الصدمة، وعظم الفجيعة التي جعلته كأنه لا يشعر بوجود هذه الآية في كتاب الله، ولهذا نفى الماضي فقال (ما شعرت) ولم ينف المضارع ، وأعاد بعض التأكيدات التي اشتملت عليها الجملة الأولى (أنها في كتاب الله)، وكأنه بنفي الماضي دون المضارع كأنه لا يريد أن يستحضر هذا المشهد الذى خالف فيه ما ثبت في كتاب الله .

وعبرت – رضى الله عنها بـ (ثم) الدالة على التراخي في (ثم قال عمر) عند الحدث الذى دعا فيه عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – إلى مبايعة أبى بكر ليكون خليفة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – لكونه أجدر الناس بها، لتدل على عظم هذا الأمر ومخالفته لما سبق من رصد أحداث وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولهذا أعادت ذكر سيدنا عمر ثانية فقالت : (ثم قال عمر) ؛وذلك مع إمكان الاستغناء عنه اكتفاء بذكره أولاً؛ وكأنها بذلك تنبه إلى

(١) الفروق اللغوية لأبى هلال ص٦٤

الدور العظيم الذى قام به الفاروق –رضى الله عنه – بكونه أول من بايع سيدنا أبا بكر، ودعا إلى مبايعته.

وجاءت أداة النداء الموضوعة للبعيد داخلة على (أيّ) المقترنة بهاء التنبيه في (يا أيها الناس) ؛ لتبالغ في تنبيه الناس إلى عظم، وأهمية ما يدعوهم إليه في حماية الدعوة الإسلامية من مبايعة سيدنا أبى بكر في هذا الوقت العصيب الذى اشرأبت فيه رؤوس الكفر، والنفاق متربصة بالإسلام والمسلمين، وجاء التعبير بـ (الناس) لأن مقصده هو تحقيق غايات العموم، والشمول من وراء هذا النداء؛ وذلك لأن لفظة (الناس) من أوفى الألفاظ تحقيقاً لهذ الغرض لكونها تطلق على الأحياء والأموات[1]، وجاء التعريف باسم الإشارة (هذا أبوبكر) للدلالة على الكمال، والقوة، والشدة، والصلابة، وكأنه يؤكد الجدارة والاستحقاق التي جعلت النبي – صلى الله عليه وسلم – يستخلفه في حياته للصلاة بالناس رغم اعتراض نسائه بكونه أسيفاً متى ما يقوم مقام النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يسمع الناس، واللاتي كن يرون عمر أحق وأجدر بهذا، ولكن حكمة الله –تعالى – التي أظهرت الفوارق في أحلك الظروف، وأشد الأحوال، وبينت صدق من لا ينطق عن الهوى –صلى الله عليه وسلم – علماً بأنه قد تبين من خلال هذه الدراسة أن الصحابة المقربين إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم – ممن وقفت على أحاديث لهم متعلقة بهذا الحدث العظيم قد اتسموا بالثبات النفسي حيال هذا الحدث ولم ينكر أحد ذلك إلا سيدنا عمر – رضى الله عنه – وكأنهما لما كانا هو وسيدنا أبوبكر كفرسى رهانٍ أراد الله أن يظهر أمره، وأن يقضى شأنه، ولعل هذا ما دعا سيدنا عمر –رضى الله عنه – إلى أن يقرن التعريف باسم الإشارة (هذا) بالتعريف بالضمير (هو) في (وهو ذو

(١) ينظر الفروق اللغوية لأبى هلال ص٢٢٧

شيبة المسلمين) أي أكبرهم مقاماً، وسناً، ومكانةً، قاصداً –رضى الله عنه – بوصفه أو بكنايته بذي شيبة المسلمين إلى الحنكة، والدربة، والخبرة، والقدرة على رعاية الأمور، والإمساك بزمامها، والسيطرة عليها، ولهذا جاء بها في إطار جملة الحال فقال: (وهو ذو شيبة الإسلام) لأنه أراد بجملتي (هذا أبو بكر وهو ذو شيبة المسلمين) أن يجعلهما في إخراج واحد حتى يساند، ويعاضد بعضهما بعضا في تأكيد دلالات الكمال والعناية بإظهار فضائل الصديق –رضى الله عنه – وهذا مالا يحققه التعبير بإسقاط (الواو) في (وهو) ؛لأنه يجعلهما في إخراجين قد يغنى أحدهما عن الآخر؛ فدلالات الكمال، والقدرة، والشدة، والصلابة التي جاءت لتحقق الجدارة والاستحقاق في جملتي (هذا أبو بكر وهو ذو شيبة المسلمين) هي التي دعت إلى إتيان الأمر بالمبايعة مقروناً بـ (الفاء) الدالة على السرعة والتعقيب، بل هي التي دعت إلى اصطفاء الأمر بالمبايعة خاصة إذ فيه صورة تمثيلية تتناغى مع عناصر التوكيد التي اشتمل عليها هذا السياق إذ هي "عبارة عن المعاقدة والمعاهدة كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره"[1] وهذا أدل على تمام الرضا والقناعة والتأييد، وهذا بخلاف الأمر بالتولية فإنه لا يحقق هذه الدلالات، ولهذا جاءت الإجابة بغاية السرعة المفادة من (الفاء) في (فبايعوه) ؛لأن المقام كان كفيلاً بإظهار حقائق الأمور، ومظاهر الكمال والجدارة والاستحقاق.

هذا وبعد أن صور لنا سيدنا عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – موقف سيدنا أبى بكر الصديق –رضى الله عنه –بعد خروجه من عند النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد وفاته فيما رواه عنه الزهري، نقل لنا الزهري –رضى الله عنه – حال سيدنا عمر بن الخطاب وذلك فيما رواه عن سعيد بن المسيب

(١) لسان العرب لابن منظور ٢٦/٨ (بيع)

قال : (فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال:)، فالفاء في قوله :(فأخبرني) جاءت لتعطف كلاما على كلام، وكأنه –رضى الله عنه –بدلالات السرعة التي تفيد ها (الفاء) يشى بأن هذا قد كان في آن واحد، ومجلس واحد، وجاء التعبير بـ (الإخبار) خاصة ليشى بانتشار، وشيوع هذا الخبر بين الصحابة جميعا من رأى، ومن سمع ولعل هذا ما يكمن وراء التأكيد بـ (أنَّ)، وإسناد القول إلى سيدنا عمر مرتين وكأنه يريد أن يلفت الذهن إلى أن ما يقصه إنما هو على لسان صاحب الشأن، إذ هو أقدر على تصوير حاله.

فقد صدَّر سيدنا عمر – رضى الله عنه – حديثه بأسلوب القسم (والله)، وأعقبه بأسلوب (النفي والاستثناء) المشتمل على ضمير الشأن (هو) دون شك من الصحابة أو إنكار لما أصبح عليه، وذلك ليهيئ النفوس لتدرك عظم ما أصابه بعد سماعه لسيدنا أبى بكر وهو يتلو هذه الآية، وهو ما صوره باستعارة العقر لفجأة الدهشة، معطوفاً على ما قبله بـ (الفاء) الدالة على السرعة، وكأنه بمطل حديثه يشى بأن الألفاظ تعجز عن تصوير حالته، وما يدور بداخله وهو ما يفيده العطف بـ (حتى) وتكرارها، مع إعادته ذكر سماع التلاوة في قوله :(حين سمعته تلاها)، وكأنه يؤكد دور هذا السماع الذى صرفه عما هو فيه من إنكار، ومن ثم جاء به في إطار التفسير بعد الإبهام بضمير الشأن، فقال (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها)، وذلك مع إمكان التعبير بقوله: (والله ما سمعت أبا بكر تلاها إلا وعقرت)، وكأنه – رضى الله عنه – بإيثاره لهذا النمط الأسلوبي مع التكرار يريد أن يقرع الذهن بهذا السماع مرة بعد مرة عنايةً واهتماماً بإبراز دوره في صرفه عما هو فيه.

وحتى يظهر – رضى الله عنه –مكانة سيدنا أبى بكر –رضى الله عنه – ، وقوة جأشه الذى جعله يحسم هذا الأمر أسند التلاوة إلى سيدنا أبى بكر مرتين،

مؤثرًا قوله (ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها) على قوله: (ما هو إلا أن سمعت تلاوة أبى بكر لها)، وكأنه بهذا يعتذر لسيدنا أبى بكر – رضى الله عنه– عن رفض الجلوس، ويؤكد استحقاقه ليكون خليفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو ما حكته رواية السيدة عائشة الأولى فقالت : " ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا أَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ذُو شَيْبَةِ الْمُسْلِمِينَ فَبَايِعُوهُ فَبَايَعُوهُ".

وآثر النفي بـ(ما) دون (لم) لأنها بما اشتملت عليه من مد أقدر على إفراغ ما بداخله، وهو ما أراد استحضاره بصيغة المضارعة (تقلني)، والتي آثرها على (تحملني) لتتلاءم بدلالة مادتها على الرعدة [1]مع العقر المنصوص عليه، ودلالة على سرعة سقوطه عبر بـ (الإهواء) الذى يكون في خلو[2]، وإنما قال: (أهويت) دون (هويت) لأنه يكون عن قرب بخلاف (هويت) فإنه يكون عن بعد[3]، إلى جانب أنه بكثرة حروفه مقارنة بـ (هويت) يتلاءم مع المطل والإشباع المفاد من ترداد السياق لعبارات يغنى بعضها عن بعض في الظاهر مع ذكر (حتى) وتكرارها، والتي جيء بها لتسهم في استيقاف النفوس عند هذا المشهد الذى أراد استحضاره بإيثاره صيغة المضارعة (تقلني)، والذى يصور عظم ما أصابه في هذا الموقف، وحتى لا يوهم بأن هذا (الإهواء) كان إغماءً عدل عن التقييد بـ (على) إلى التقييد بـ (إلى) دلالة على أنه كان استكانة إلى الأرض، وجلوسًا عليها، وهذه هي دلالات انتهاء الغاية التي تفيدها (إلى).

(١) ينظر : لسان العرب١١/٥٦٦ (قلل)

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٦ /١١ (هوى)

(٣) ينظر: لسان العرب ١٥/٣٧١(هوا)

وعبر بقوله :(حين) دون (وقت) لأنه يرتبط بمقامات الهلاك والمحنة[١]، وعبر بـ (العلم) دون (المعرفة) لأن العلم أعم من المعرفة، والمعرفة تكون للشيء قد غاب عن الذهن بعد إدراكه، وفى هذا دلالة كما سبق على أن سيدنا عمر لشدة ما هو فيه كأنه لم يعلم أن هذه الآية قد نزلت ألبتة، ولهذا نفى(الشعور) الذى يكون لما دق، و لطف من الأمور [٢]، وعبر بقوله : (علمت أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد مات) ولم يعبر بقوله: (علمت موت النبي –صلى الله عليه وسلم –) ؛ لينزع بعناصر التوكيد التي اشتمل عليها هذا الأسلوب الإنكار الذى سيطر عليه، وأفعم به صدره وقال: (النبي – صلى الله عليه وسلم –) ملائمة لمقام الرحمة والإشفاق الذى كان فيه ، ومبالغة في التنويه، والتعظيم، فالنبي "مشتق من النبوة بمعنى الارتفاع"[٣]،ولعل هذا هو سر التعريف بـ(أل) دون الإضافة، اكتفاءً بإسناد الصلاة والسلام في الجملة الدعائية إلى المولى –سبحانه وتعالى وبذا حقق كل معانى التعظيم والتنويه، لاسيما وأن المقام حينئذ أصبح مقام اعتراف ولم يصبح مقام إثبات لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – رسول من رسل الله يصيبه ما أصاب الرسل من قبله كما ورد في سياق الآية الكريمة.

(١) ينظر: الكليات ص ٤٠٥

(٢) ينظر : الفروق اللغوية لأبى هلال ص٦٤

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٣٠٧/٥(نبو)

المبحث الثالث

الحالة النفسية للسيدة فاطمة الزهراء عند وفاة خير البرية

(صلى الله عليه وسلم)

السيدة فاطمة الزهراء – رضى الله عنها – هي ريحانة رسول الله –صلى الله عليه وسلم – والوحيدة من أبنائه التي ماتت بعده، فقد عانت من وفاة أبيها ويلات، وعاشت حسرات، وتجرعت زفرات، وحتى يهون عليها أخبرها بأن للموت سكرات، وأنه ليس عليه كرب بعد هذه الأوقات .

فقد روى البخاري في صحيحه فقال: – { حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ لَمَّا ثَقُلَ النبي – صلى الله عليه وسلم – جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ – عَلَيْهَا السَّلاَمُ – وَاكَرْبَ أَبَاهُ . فَقَالَ لَهَا « لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ » . فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ يَا أَبَتَاهْ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ . فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ – عَلَيْهَا السَّلاَمُ – يَا أَنَسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – التُّرَابَ}[1]

عندما أراد سيدنا أنس – رضى الله عنه – أن يصور حالة الشدة التي كان عليها النبي – صلى الله عليه وسلم – عند وفاته قصد إلى تهيئة النفوس فصدر كلامه بـ(لما) التعليقية؛ وذلك لأن تصوير حالة الشدة التي كان عليها – صلى الله عليه وسلم – هي أصل الحدث وجذر المعنى الذى بنى عليه النص في هذا المقام، ورتب عليه ما تبعه من أحداث تعلقت بوصف وتصوير حال

(١) صحيح البخاري –كتاب المغازي –باب مرض النبي (صلى الله عليه وسلم) ووفاته٢/٣٨١ – حديث رقم ٤٤٦٢.

السيدة فاطمة –رضى الله عنها – ،ومن ثم جسد هذه الشدة بالتعبير بالفعل (ثقل) خاصة دون (اشتد)لارتباطه بالماديات، فهي كلمة غنية بتصوير وتجسيد دلالات الشدة التي تفطّر منها قلب سيدنا أنس ألماً، ووجعاً، ورحمةً صورها أبلغ تصوير اصطفاؤه للفظة (النبي) بما تفيض به من حنوٍ، وتلطفٍ، ورقةٍ تبعتها الجملة الدعائية (صلى الله عليه وسلم) والتي كأنها بمطلها تنفس عما يكمن بداخله من تباريح التحسر، والتحزن، والأسى، وإنما آثر التعريف بـ (ال) فقال : (النبي) دون (نبي الله) ؛لأن التشريف الذى يفاد من الإضافة إلى لفظ الجلالة في ظاهره ينافى مقامات الشدة والألم التي كان فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقتئذٍ، وجاء الجواب بـ (جعل يتغشاه) دون (تغشاه الكرب) مثلاً ليؤكد أن تصوير حالة الشدة والمعاناة التي كان فيها رسول الله –صلى الله عليه وسلم – هي أصل، وجذر المعنى الذى قصد إليه سيدنا أنس في هذا المقام، وكأنه –رضى الله عنه – بإيثاره فعل الشروع(جعل)، وخبره الوارد بصيغة المضارعة(يتغشاه) كأنه يريد أن ينقل لنا باستحضار المشهد صورة الشدة والمعاناة التي كان فيها –صلى الله عليه وسلم – ، ويضعها بين أيدينا، وأمام أعيننا فنعيشها بألمها، وأساها فنتعظ ونعتبر، ونُعدّ أنفسنا لهذا اليوم العصيب الذى لم ينج منه حتى خير البرية – صلى الله عليه وسلم – .

وأطلق – رضى الله عنه – الفعل (يتغشاه) دون تقييد بالفاعل (الكرب) ليرخى للذهن العنان في تخيل الشدة والمعاناة التي كان فيها –صلى الله عليه وسلم – ، لاسيما وأنه بالوقوف على ضمير الغائب العائد على النبي – صلى الله عليه وسلم – في (يتغشاه) استطاع أن يبرز آهات الألم التي تتصارع خارجة من صدر سيدنا أنس –رضى الله عنه – ، والتي تتناغى مع آهات الألم، والحسرة التي كانت تتصارع في صدر السيدة فاطمة –رضى الله عنها – والتي

أفرغتها في المدود التي بنى عليها النظم في (أبتاه – دعاه – مأواه – ننعاه)، والتي نقلها إلينا سيدنا أنس بالعطف بـ (الفاء) الدالة على السرعة والتعقيب في (فقالت)، وذلك بعد أن استحضر بعناصر المطل والإشباع المعاناة والشدة التي كان عليها –صلى الله عليه وسلم – ،فـ (الفاء) العاطفة بدلالتها على السرعة والتعقيب تشير إلى أن الجملة المعطوفة (فقالت فاطمة) كأنها تولدت من رحم سابقتها التي بنى عليها النظم، ودار عليها معقد الكلام، وأصل الحدث، والتي دعت السيدة فاطمة –رضى الله عنها – إلى إيثار نداء الندبة (وا) والذى أفرغت فيه ما بداخلها من آلام وأحزان يصورها أتم تصوير نداء ما لا يعقل وهو الكرب، والذى يصور الوله، والحسرة التي ملأت ما بين جوانحها حزناً، وأسىً، ومن ثم قرنت هذا النداء بقولها: (أباه) الذى كأنه يصف بإيقاعه البكاء المصاحب للنداء في هذا المقام، ولعل هذا ما دعا السيدة فاطمة – عليها السلام – إلى أن تسارع بقولها هذا كما هو مفاد (الفاء) في (فقالت فاطمة)، وإنما اختار الدعاء لها بـ (السلام) شفقة عليها، ورحمة بها في مقام الحزن هذا، ورغبة في أن تحاط بـ (السلام) في هذا الموقف العظيم .

ومقام الحزن وتقطع الأنفاس هذا هو الذى جعل سيدنا أنسًا يعدل عن قوله :(فقالت فاطمة ابنته) اكتفاءً بدلالة النداء في(واكرب أباه)، ولعله ذاته هو الذى جعله يعدل عن ذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – في (فقال لها – فلما مات قالت – فلما دفن قالت فاطمة) ؛وكأن شدة الحزن التي سيطرت على سيدنا أنس جعلته ينأى عن التلفظ بذكر النبي – صلى الله عليه وسلم – أسفاً وحسرةً، ولم يذكر السيدة (فاطمة) في قوله : (فلما مات قالت) لأن درجات الحزن لحظة الموت كانت أعلى منها بعد الدفن، ومن ثم قال: (فلما دفن قالت فاطمة –عليها السلام – يا أنس) فمطل الحدث بذكر السيدة فاطمة، والدعاء لها –

والنداء)يوحى بأن النفس بعد دفنه – صلى الله عليه وسلم – كانت قد بدأت تهدأ، وترضى بحكم الله وقضائه، ولعل هذه هي حكمة الله في تأخير دفنه – صلى الله عليه وسلم – بعد موته.

ونفى –صلى الله عليه وسلم – الكرب بـ (ليس) دون (ما) لأن دلالات النفي في (ليس) أقوى من (ما) وذلك بمقارنة الفعلية بالحرفية مع زيادة المعنى لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا[1]،إذ هي التي تتناغى مع مقامات شدة الحزن التي سيطرت على السيدة (فاطمة) آنذاك، إضافة إلى أنها بكثرة حروفها مقارنة بـ (ما) تظهر مدى شفقة الحبيب المصطفى –صلى الله عليه وسلم – على ابنته – عليها السلام – حتى في أصعب المواقف التي مر بها – صلى الله عليه وسلم – ،تظهر هذا التسلية المفادة من الإضافة، والتقديم في (على أبيك) مع أن مقام الشدة الذى كان فيه –صلى الله عليه وسلم – كان يقتضى الإيجاز المناسب لقوله : (ما علىّ كرب)، ولكنه –صلى الله عليه وسلم – الشفوق بابنته راعى حالها فأكد كلامه بالنفي بـ (ليس) والإضافة، ونكّر (كرب) ليفيد نفى عموم حصول الكرب بعد هذا اليوم، وعرفه بـ(ال) فقال (اليوم) ليدل على كمال شدته عليه – صلى الله عليه وسلم – وعلى أمته، وتلاؤماً مع قوة الانفعال، وتسارع الأحداث العظام في هذا الموقف آثر سيدنا أنس –رضى الله عنه – العطف بـ (الفاء) التي جاءت لتعطف مجموع كلام على مجموع كلام مقترنة بإعادة (لما) التعليقية ؛ لتكون دالة في كلامه تشير إلى تنوع وتغير الحدث، وأثر ذلك على السيدة فاطمة –رضى الله عنها – ، فقد صدر بها كلامه عند تصوير شدة مرضه –صلى الله عليه وسلم – ، وأعادها عند موته –صلى

(١) ينظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية بن مالك ٢٩٦/٢ – ط: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة.

الله عليه وسلم – ، وأعادها عند دفنه –صلى الله عليه وسلم – ليضع أمام أعيننا هذه الأحوال الثلاثة، وأثرها على السيدة فاطمة –رضى الله عنها – ، وكأنه عند تكرارها ثانية، وثالثة يريد أن ينبه على تباين المواقف الثلاث في درجات الحزن، والأسى لينقل لنا صورة حاله، وحال السيدة فاطمة –رضى الله عنها – في هذا المقام، والتي أومأ إليها بعدم قدرته النفسية والمعنوية على أن يسند الموت إلى النبي –صلى الله عليه وسلم – صراحة، بل إن شدة الأسى هي التي جعلته لا يستطيع أن يذكر السيدة فاطمة الزهراء، وإنما اكتفى بالألفاظ التي تؤدى المعنى فحسب فقال : (فلما مات قالت)، وعدلت –رضى الله عنها – عن نداء الندبة (وا) بعد الموت إلى النداء بـ (يا) استجابة لدواعي الإيناس، والتسلية التي قصد إليها –صلى الله عليه وسلم – من وراء قوله: (ليس على أبيك كرب بعد اليوم)، إلى جانب أن (يا) بدلالتها على البعد تتناغى مع بعده –صلى الله عليه وسلم – عنها بموته، لاسيما وأن فيها ما في (وا) من مد تفرغ فيه ما بداخلها من آهات وأحزان، ولما كانت أعلى درجات الحزن، والأسى إنما تكون لحظة الموت جاءت بـ (التاء) مقترنة بألف الندبة، وهاء السكت، مخالفة سمت بنائها حالة استبداد المرض بأبيها لتفرغ فيه بما فيه من طول آلام الحزن التي تتصارع بداخلها، ومن ثم كررت النداء، وكأنها لشدة ما فيه من حزن لا تريد أن تترك لفظة (الأبوة) تفارق فمها حسرةً وأسفًا، وإتيان كلامها مبنيًا على السجع مختوماً بالألف والهاء كأنه يصف البكاء المصاحب للنداء وذلك في(أبتاه –دعاه – أبتاه – مأواه – أبتاه – ننعاه).

وعبرت –رضى الله عنها – بالإجابة في (أجاب ربا دعاه) لتنشر دلالات موافقة الرسول –صلى الله عليه وسلم – ورضاه، وقبوله لحكم الله وقضائه، فـ "الإجابة: هي موافقة الدعوة فيما طلب بها لوقوعها على تلك الصحة"[١].

وفيه إيحاء بإجابة الرسول –صلى الله عليه وسلم – مولاه في كل ما طلب منه دعوةً وتبليغاً، وتبشيراً وإنذاراً، لاسيما وأنها تفيض بالتشريف، والتكريم الذى تنشره عليها لفظة (دعاه) بما تحمله من دلالات القرب مقارنة بـ (النداء) الذى يكون عن بعد[٢]، متوائمة مع وشائج ولحمة اللطف، واللين، والرحمة التي تنبعث منها مقترنة بلفظة (الربوبية) والتي أرادت السيدة فاطمة –رضى الله عنها – أن تسرى بها عما يموج بداخلها من أحزان، وأوجاع، وعبرت بالاسم الموصول (من)، وآثرته على التعبير بحرف الجر (من) كما ورد في روايات هذا الحديث[٣]؛لأنه هو الذى يتلاءم مع معانى التشريف، والتكريم التي تقصد إليها السيدة فاطمة –رضى الله عنها – وهى تسرى الهم والغم عنها، والتي أراد النبي –صلى الله عليه وسلم – أن يقررها بقوله : (ليس على أبيك كرب بعد اليوم)، وذلك لأن (من) الموصولة تجعل جنة الفردوس كلها وكأنها أصبحت مأوى وداراً لإيواء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإحاطته تشريفاً، وتكريماً، وهذا بخلاف دلالات التبعيض التي تفيدها (مِن) الجارة، ولعل هذه هي الدقة التي قصد إليها العيني من وراء ترجيحه لرواية

(١) الكليات ص٥٠

(٢) ينظر: الكليات ص ٤٤٧

(٣) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري تأليف: بدر الدين محمود بن أحمد العيني– ٧٥/١٨–ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت–دون

(مَن) الموصولة[1]، يؤيد هذا إيثارها –رضى الله عنها – للتعبير بلفظة (جنة) مع إمكان الاستغناء عنها بالمضاف إليه (الفردوس) مراعاة لمقام الحزن الذى يتطلب الإيجاز، ولكنها –رضى الله عنها – كأنها اتخذت من ترداد الألفاظ التي تنبض بالتشريف وسيلة لإخراج تباريح الألم الذى يعتصر قلبها، والذى يلوح من التأوه الذى تتضمنه لفظة (مأواه)، والتي تعد بإيثارها دون سواها من أقدر الكلمات التي استخرجت جذور الآهات التي تغلغلت في أحشاء السيدة فاطمة –رضى الله عنها – ، وذلك من وراء ما قصدت إليه من إظهار دلالات التشريف والتكريم، والتي تعد سبباً في إيثار التعبير بحرف الجر (إلى) في (إلى جبريل ننعاه)؛لأنه بدلالته على انتهاء الغاية مقارنة باللام الدالة على الاختصاص، يشى بعلو منزلة سيدنا جبريل الذى تريد أن تبلغه بوفاة خير البرية – صلى الله عليه وسلم – كما هو مفاد إيثار لفظ (النعي)، وإنما اختصت جبريل –عليه السلام – لأنه أمين وحى السماء، فبموته –صلى الله عليه وسلم – انقطع التشريف الذى كانت تحظى به الأرض بتنزل الروح الأمين، وجاءت حركات المد بالفتح في إيثار (إلى) مقرونة بالمنع من الصرف في (جبريل)، ثم المد في (ننعاه) لتتعانق مع سمت السياق في إخراج ألوان الأسى التي تزاحمت داخل نفس السيدة فاطمة لحظة وفاة خير البرية – صلى الله عليه وسلم– .

وعندما انتقل سيدنا أنس –رضى الله عنه – لتصوير حالته، وحالة السيدة فاطمة عند دفن خير البرية – صلى الله عليه وسلم – أعاد –رضى الله عنه – لما التعليقية معطوفة على ما قبلها، والتي كأنه يريد من ورائها أن ينبه، ويرشد إلى خفة حدة الحزن، والحسرة، والأسى التي كانت لحظة خروج الروح، ومفارقة الحياة، يتجلى هذا من ذكره لاسم السيدة (فاطمة)، كما ورد في تصوير حالها

(١) ينظر: عمدة القاري ١٨/٧٥

عند مرضه –صلى الله عليه وسلم – وهذا بخلاف لحظة الموت، ومن قرنه بالدعاء لها بـ (السلام)، ويتجلى من ندائها – رضى الله عنها –لسيدنا أنس– رضى الله عنه – .

وفى إيثارها – رضى الله عنها – سيدنا أنسًا بالنداء خاصة دلالة على أنه كان من أقرب الناس منها في هذه اللحظات كما يتجلى من اهتمامه بتصوير أحوالها وقتئذٍ، وجاءت بالاستفهام الإنكاري التوبيخي المشوب بالعتاب واللوم لتشى بالحسرة، والأسى الذى كان يعتصر قلبها وهى ترى الصحابة –رضوان الله عليهم – يوارونه – صلى الله عليه وسلم – بالثرى، ومن ثم مطلت الحديث بقولها : (أطابت أنفسكم) دون (أرضيتم)، وكأنها بزيادة تركيبها تنفس عما يجول بداخلها من حزنٍ، وأسىً، وعبرت بجمع القلة (أنفسكم) ؛لأن من يقومون بذلك مجموعة من الصحابة وليس كلهم وفيه دلالة على أن الكل كأنه لا يرضى بهذا، ولا يوافق عليه حسرة وأسفًا ومن ثم عدلت عن جمع الكثرة (نفوس)، ولعل مطل الحوار في هذا المقام هو السر وراء التعبير بـ (أن) المصدرية في (أن تحثوا)، وعبرت بـ (الحثى) دون (الوضع) أو (الإهالة)؛ لأنه بأصل دلالته على ذرو الشيء الخفيف[1] كأنه يصور حالة الصحابة –رضوان الله عليهم – وهم يتأذون، وتتقطع أرواحهم وهم يضعون التراب على رسول الله –صلى الله عليه وسلم – ، وكأنهم لا يريدون ذلك، وكأن أيديهم تابعة لقلوبهم لا تطاوعهم في فعل ذلك تشريفاً، وتكريماً للنبي –صلى الله عليه وسلم – ، ورغبة في عدم غيابه عن نواظرهم حباً وتفانياً، ولعل هذا ما قصدت إليه –رضى الله عنها – من وراء استحضار هذا المشهد بصيغة المضارعة (تحثوا)، ودلالات التشريف، والتكريم التي يلوح بها الاستفهام الإنكاري التوبيخي العتابي هي التي جعلتها

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس ٢/١١٠

تؤثر تقديم الجار والمجرور(على رسول الله) عنايةً، واهتماماً إذ عليه –صلى الله عليه وسلم – معقد الكلام، وأصل الحدث، وهى أيضاً التي جعلتها تؤثر التعبير بحرف الاستعلاء (على) دون الفوقية، لأنها بحروفها تدل على العلو المناسب لمقام التشريف، والتعظيم الذى ينافى وضع التراب عليه، ومن ثم آثرت الإضافة إلى لفظ الجلالة (رسول الله)، وأخرت ذكر التراب كراهية لهذا الذى يوارى عنهم أعظم مخلوق على وجه الأرض، ولعل هذا هو سر تعريفه تعويضاً عن التأخير؛ لأن الإنكار والتوبيخ والعتاب متجه إليه، وكائن بسببه.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث بأسمى الآيات وأبلغ الكلمات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد

فهذا بحثى (من أحوال الصحابة النفسية عند وفاة خير البرية – دراسة بلاغية – أبو بكر وعمر وفاطمة نموذجًا)والذى حاولت من خلاله الوقوف على الحالة النفسية لبعض الصحابة – رضوان الله عليهم – والتي برزت من ثنايا الكلمات التي رصدت أحوالهم في هذا المقام المشحون بالآلام والأحزان والتي من خلالها استطعت الوقوف على بعض الخصائص والنتائج التي تمخضت عنها هذه الدراسة والتي يتجلى أهمها فيما يأتي:

أولاً: – حالة الثبات النفسي التي اتسم بها أصحاب النبي المقربون إزاء هذا الحدث العظيم عدا سيدنا عمر بن الخطاب الذى كأنه أنكر ذلك، وعللت الدراسة ذلك بأنه قد جاء تعليماً لأمة الحبيب المصطفى –صلى الله عليه وسلم – التي رأت في سيدنا أبى بكر عندما ولاه الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – ليكون خليفته في الصلاة بالمسلمين حين مرضه – رجلا أسيفا متى يَقُمْ مقام النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يسمع الناس فجاء هذا الموقف ليكون دعوة إلى الإذعان والامتثال لما أمر به، ودعا إليه الحبيب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – بعد وفاته من واقع التجربة الفعلية الحية التي تؤكد صدق من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى.

ثانياً: – يعد نداء الندبة من أبرز الخصائص الأسلوبية التي اتسمت بها روايات الحديث التي قصت، وصورت مشاهد وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم

– ولعل ما يتسم به هذا الأسلوب من مد يعد من أقدر الأساليب التي استطاعت أن تفرغ ما بداخلهم من آهاتٍ، وأحزانٍ .

ثالثاً: – خلو المقامات التي رصدت أحوال الصحابة – رضوان الله عليهم – من الاعتماد على الأساليب التصويرية إلا نادراً بحيث لم يرد الاعتماد على الأساليب التصويرية إلا في موضعٍ واحدٍ على سبيل التعنيف نتيجة شدة الموقف، وقيامها على الأساليب الحقيقة؛ لكونها أقدر على وصف الحدث، ورصد أحواله، وتحديد ملابساته.

أما بعد :

فأحمدك ربى على ما أنعمت وتفضلت، حمد المعترف بالتقصير، الواثق في سعة رحمتك، وعظيم فضلك، وأدعوك أن ينال هذا البحث رضاك، وأن تجعله جديراً بالنفع، إنك ولىّ ذلك والقادر عليه .

فهرس المصادر والمراجع

١- الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين رحمة الله عليهن أجمعين تأليف :أبى منصور عبد الرحمن بن محمد بن هبة الله بن عساكر –تحقيق: محمد مطيع الحافظ وآخر – ط: دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولى – ١٤٠٧هـ.

٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة للإمام عز الدين أبى الحسن على بن محمد الجزري ابن الأثير – ت/الشيخ خليل مأمون شيحا – ط:دار المعرفة – بيروت – لبنان –الطبعة الأولى –هـ ١٤١٨ – ١٩٩٧م.

٣- أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك لأبى محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام الأنصاري – ط:دار الجيل – بيروت – الطبعة الخامسة – ١٩٧٩م.

٤- الإصابة في تمييز الصحابة للإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني تحقيق /الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ على محمد معوض – ط: دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

٥- الأنموذج في النحو – تصنيف محمود بن عمر الزمخشري – اعتنى به /سامى بن حمد المنصور– الطبعة الأولى – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

٦- الإيضاح في علوم البلاغة – المعاني والبيان والبديع – تأليف :الخطيب القزويني جلال الدين محمد بن عبدالرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد – وضع حواشيه/إبراهيم شمس الدين –ط : دار الكتب العلمية –بيروت – لبنان – الطبعة الثانية – ٢٠١٠م .

٧- التعبير القرآني والدلالة النفسية تأليف الدكتور/ عبد الله محمود الجيوشي – ط: دار الغوثانى للدراسات القرآنية – دمشق –حلبوني – الطبعة الثانية – ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٢م.

٨- تفسير أبى السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم – ط:دار إحياء التراث العربي – بيروت – دون.

٩- تفسير التحرير والتنوير – تأليف: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور – ١١٠/٤– ط: الدار التونسية والدار الجماهيرية –دون.

١٠- الجنى الداني في حروف المعاني – تأليف: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي – تحقيق/ د. فخر الدين قباوة – الأستاذ محمد نديم فاضل – ط:دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

١١- دلائل الإعجاز – تأليف الشيخ الإمام أبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي –قرأه وعلق عليه/أبو فهر محمود محمد شاكر –مطبعة دار المدني بالقاهرة – دار المدني بجده – الطبعة الثالثة – ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

١٢- ديوان امرئ القيس – ضبطه وصححه: الأستاذ/مصطفى عبد الشافي – ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الخامسة – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.

١٣- ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني –تحقيق: صلاح الدين الهادي – ط: دار المعارف – مصر – ١٩٦٨م.

١٤- رصف المباني في شرح حروف المعاني – للإمام أحمد بن عبد النور المالقي – تحقيق: أحمد محمد الخراط – ط:مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق.

١٥- سنن أبى داود – للإمام الحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدي – تحقيق/محمد محيى الدين عبد الحميد – ط: المكتبة العصرية – بيروت.

١٦- شرح أحاديث من صحيح البخاري – د/ محمد محمد أبو موسى –مكتبة وهبة – القاهرة.

١٧- شرح التلخيص للشيخ أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود بن أحمد البابرتي – دراسة وتحقيق :د/محمد مصطفى رمضان صوفية – ص ٥٩٩ – ط:المنشأة العامة –طرابلس – الجماهيرية الليبية –الطبعة الأولى – ١٣٩٢هـ – ١٩٨٣م.

١٨- الشمائل المحمدية للإمام أبى عيسى محمد بن سورة الترمذي –تعليق وإشراف /عزت عبيد الدعاس –ط : دار الحديث –بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١٩- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تأليف :أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار – ط: دار العلم للملايين – بيروت – الطبعة الرابعة – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

٢٠- صحيح البخاري للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة الجعفي البخاري – اعتنى به/أبو عبد الله محمود بن الجميل – ط: مكتبة الصفا – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤٢٣هـ /٢٠٠٣م.

٢١- الطبقات الكبرى –تأليف محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصرى الزهري تحقيق/سيد عباس الجليمى – ط: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت –الطبعة الأولى – ١٤١٢هـ.

٢٢- عمدة القاري شرح صحيح البخاري تأليف: بدر الدين محمود بن أحمد العيني – ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت – دون.

٢٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري – تأليف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي – رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي – قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب – ط: دار المعرفة – بيروت – ١٣٧٩م.

٢٤- فرائد اللغة في الفروق تأليف: هنريكوس لامنس اليسوعى – ط : مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – ١٩٩٩م.

٢٥- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري – تحقيق/حسام الدين القدسي – ط: مكتبة القدسي – القاهرة – ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

٢٦- كتاب معانى الحروف –تأليف: أبى الحسن على بن عيسى الرماني النحوي – دار نهضة مصر – القاهرة.

٢٧- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل تأليف: أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي – ط:دار المعرفة – بيروت – لبنان .

٢٨- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية – لأبى البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي – ت:د/عدنان درويش – محمد المصري – ط: مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية – ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

٢٩- لسان العرب – للإمام العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري – دار صادر –بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

٣٠- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين – تأليف :محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله بن قيم الجوزية – تحقيق : محمد حامد الفقي – ط : دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣م.

٣١- مسند الإمام أحمد بن حنبل تأليف أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني –تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد –ط: مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى – ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

٣٢- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم –تأليف العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى –تحقيق: عبد الحميد هنداوي – ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

٣٣- معجم التعريفات – للعلامة على بن محمد السيد الشريف الجرجاني – تحقيق / محمد صديق المنشاوي – ط : دار الفضيلة – القاهرة ٢٠٠٤م.

٣٤- معجم مقاييس اللغة – تأليف : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا – تحقيق : عبد السلام محمد هارون – دار الفكر – ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٣٥- مفتاح العلوم للإمام سراج الملة والدين أبى يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكي – تحقيق/نعيم زرزور – ط: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان –الطبعة الثانية – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م

٣٦- **المفردات في غريب القرآن - تأليف: أبى القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني -تحقيق: محمد سيد كيلاني - ط: دار المعرفة - بيروت.**